العكاكيز

عبد الفتاح مرسى

قصص

دفقات للنشر
والتوزيع



العكاكيز

عبد الفتاح مرسى (مجموعة قصص)

الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢م

المراسالات : المركز المصرى للتكوين المعرفى.
جمعية مشهرة برقم ١٣٥١
٥٥ ش أحمد فتحى - جليم الإسكندرية

الكتب الإبداعية عناية أ/ عبد الفتاح مرسى
لوحة الغلاف للفنان عبد العال
رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١١١٦٨
الترقيم الدولى:0-269-327-977

"إلى مسك الإسكندرية"

الكاتب المسرحى

والروائى المبدع

المرحوم "أنور جعفر"

الذى انتقل فى منتصف مارس سنة ٢٠٠٢ م.

مـــن شـغاف المدينـــة التـــى عشـــقها ..

إلـــى شـغاف القلـــوب التـــى عشقـــته..

أهـــدى قصـــصاً قـــرأها .. ولم يـــــزل

صـــوته فـــى أذنـــــى .. يشـــــجعنى

ويشد من أزرى..

ع.م

الوكلاء لا يلعبون النطة

لم يلحظ أحد فى "الحتة" التغييرات التى طرأت علـــى شـــكل الدكاكين ومحتوياتها. إلا عندما امتلأت عن آخرها بالبضائع المستوردة وعلقت الإعلانات الملونة متضمنة صور الصبايا الفاتنات فى ملابسهن الشفيفة والمختصرة بصـــورة تأسـر الأبصار.. ومتى كان لأهل الحتة الشعبية - والفقر يحفر فى حياتهم أخاديد الحرمان تلك اللهفة على الاستجابات الفورية لهذا التبديل؟!

وقد علقت الإعلانات البوستر والمرسومة علـــى مجســمات بلاستيك محاطة بالحروف والكلمات الأجنبية، بداخل وخارج الدكاكين وعلى واجهات المنازل وجدران الشوارع والأزقـــة - وأقيمت البوابات فى الميادين لتحمل الإعلانات فى لوحات كبيرة، تعلن عن تسهيلات فى الدفـــع والإســتلام يقدمهـا الوكلاء للشركات الكبرى عابرة المحيطات. وعن تخفيضات هائلة فى أنواع مختلفة من البضـــائع المســتوردة. أهمهـا الأجهزة للمطابخ، وأجهزة الترفيه يعلنون عنها "مــا لعيــن رأت ولا أذن سمعت .. زيارة واحدة لمعارضنا وتصير زبونا دائماً لبضائعنا" وفى الإعلانات التى أغرقوا بهــا الشــوارع والميادين. أرقام التليفونات التى إذا تم استخدامها سيحضر المندوب (عندكم) ولديه النشرات اللازمة. وجداول الخصم، وطريقة السداد، وكتالوجات لبضائع منوعة من العالم الأول والثانى - العالم الثالث سيكون فى أشد الحاجة إليها تسليم المخازن - واتصلوا بنا تجدوا ما يسركم"

وكانت الإعلانات قد وزعت فى تشـــكيلات جذابـــة. وبعضها يتم توصيل الكهرباء إليه، فتطرف عيون الصبايــا، وتخفق الصدور الناهدة، وتومئ النساء بإيماءات خاصـــة. وقد تضاء علب البلاستيك فتتجسم الصور وتصير أقرب إلى الواقع فتكون أشد جذبا للمستهلك!

وتدريجيا تم استدراج تجار القطاعى ونصف الجملة، حتى عقدوا الإتفاقيات مع الوكلاء، وسلموا لهـــم محلاتهـم ودكاكينهم كمعارض تعرض فيها البضائع كعينات للوكـــلاء. كما تم الإتفاق مع الورش الصغيرة والمصانع الصغيرة على أن تتحول إلى مخازن للمستورد.

وتناقلت الأقاويل عن المبالغ الضخمة التـــى دفعـت حتى سلم أصحاب الدكاكين للوكلاء دكاكينهم، بل سعوا إليهم ليستأجروا محلات البقالــــة والجــزارة والأفـــران البلــدى والأفرنجى للخبز .. وفى كل الأحوال، كان ما يدفع لتحويـــل هذه المحلات إلى مخازن ومعارض .. يزيد كثيرا عمـــا لـــو أنها واصلت العمل فى ظل الرقابة التموينيـــة علـــى البيـــع ووزن الخبز .. وأسعار اللحوم وخلافه!

وسريعا ما كانت ســـيارات الوكـــلاء التـــى تحمـــل الديكورات ومعها الخبراء فى بنـــاء المعـــارض وإزالتهـــا، يلصقون الإعلانات والصور مع عرض قليل من البضائع .. على وعـــد بتنفيـــذ أى إرتباطـــات باســـتخدام الفاكســـات والتليفونات الدولية إلى شركائهم عبر البحار!

وخصص لكل شركة من الشركات المـــوردة لونهـــا المفضل وشعارها، وإعلاناتها المميزة .. وملكات الجمال أو ممثلات الإغراء فى السينما العالميـــة. يخصـــون الشـــركة المتعاقدة معهم بالظهور مع بضائعها .. عرايـــا وأنصـــاف عرايا .. ولا تجور شركة على موديلات شركة أخرى .. وقد تستخدم بعض الشركات تشكيلات ملونـــة بنظـــام معيـــن ..

يستقى ألوانه من لون علم الدولة التى تنتمى إليها الشـركة الموردة أوشعارها. حيواناً كان أو طائراً جارحاً.

ولم يكن هذا " المهرجان" من الألـوان والأضـواء والماركات العالمية والإعلانات .. يبعث فى نفـوس أهـل " الحتة" أى نوع من انواع الريبة أو التوجس .. بل أن هذا " المهرجان" بما احتواه من أضواء وألوان أضاف الكثير مـن البهجة على الشوارع والحوارى القديمة والمنازل الكئيبة .. وسكب على الليالى الكابية البائسـة - للفقـراء محـدودى الدخل، وهم معظم سكان حتتنا - شعورا بالبهجة، يستقبلون به الزينات والأضواء وصور الإعلانات مع ما يعقب ذلك من انطلاق لطاقات الأطفال - لوجود الأضواء - فـلا يفرقـون بين الليل أو النهار .. ويمتد لعبهم إلى ساعات متأخرة مـن الليل .. وقد يشاركهم الكبار فى لهوهم البرئ، ومتعـهـم. ومعظمهم حرموا من مباهج طفولتهم .. فيلعبـون الكـرة. والنطة، والمساكة، وعنكب يا عنكب ادخل واركب.. !

ومن الطبيعى أن ينعكس هذا الحبور علـى معظـم سكان الحتة القادرين على الحركة، وقد وجـد النـاس مـا ينشغلون به ويتحدثون عنه. وقد يختلفون حوله أو يتفقون، لكنهـم فـى كـل الأحـوال يذهبـون لمشـاهدة العينـات والمعروضات والصور .. ويساومون فى أثمانها .. بصرف النظرعما إذا كـانت البضـائع بالنسـبة لهـم كماليـة أو ضرورية..!

" علم النفس التجارى يؤكد أن معظم الناس يجدون لذة قصوى فى الشراء. خاصة النساء. وقد يساعد على ذلك طريقة العرض. والدعاية المنظمة. والدفعات الأولـى التـى تتضمن تخفيضاً ظاهرا .. يدخل فى بند الدعاية والاعلان .."

وهذه التطبيقات فى علم النفس التجارى نجحت بكل المقاييس فى "حتتنا". والناس دبروا حالهم، ووفروا الأموال، وسرت فى نفوسهم حمى الشراء، حتى لا تفوتهم الفرصـة

ويندمون – وسرى ذلك بشكل سرطانى مذهل .. أطال رقاب الوكلاء المحليين أمام المديرين الأجانب ..

وأمسى كل من يحمل بطاقة مسجل فيهـــا بأنـــه – وكيل شركة أجنبية – ينظر إليه باحترام وتبجيل. فإن نسبة الأرباح المقررة للوكلاء والتى تذهب الى جيوبهم وهم نيـــام فى أسرتهم ولم يستيقظوا بعد من نومهـــم. تكـــون هائلـــة، وتفوق دخل أى عمل آخر .. تفوق العمل بتجارة المخدرات، التى تكتنفها المغامرة والخطورة وأحكام الإعدام!

كما أن هذا – الوكيل – صار ينظر إليه علـــى أنـــه مشروع "مليونير" إن لم يكن قد فعلها بذكاء ودارت "البلية" وتوقفت على الرقم الذى ألقى عليه بكل رصيده, وذلك صار يتم فى "غمضة العين" التى تسمح بمرور الصفقـــات فـــوق القوانين واللوائح.

لذا فقد ازدحمت شـــوارعنا المتعرجـــة بالمشـــترين والمستهلكين، بعد أن تمـــت تغطيـــة الجـــدارن المتداعيـــة بالسيراميك .. وتم تجليد الأسقف المفتتة بألواح البلاســـتيك والميلامين والأبلاكاش الملون واصطفت فى الحوارى التـــى تنز تفاتيشها بالغائط,أسراب من السيارات الفارهة، والتـــى اذا ركبها صاحبها يشعر بأنه فى حفلة تكريم دائمة – وقـــد امتلكها الوكلاء كجزء لا يتجزأ من الوجاهة، وبطاقة دائمـــة العضوية فى نادى رجال الأعمال، فأضافت هذه الســـيارات الفارهة مزيدا من الإبهار والبهجة علـــى "الحتة"،وخاصـــة إذا ما تحرك بها أصحابها فى زفاف أحد الأنجال أو لمناصرة فريق النادى الكبير الذى فاز فى مباراة محلية لكرة القـــدم. هنا يزداد الزياط مما يوسع من مجـــال المهرجـــان الدائـــم ويجعل حتتنا تعيش بحق.. "احتفالات عمرها" برغم ضعـــف القدرات المالية، وشحوب المدخرات.. فـــإن الأمـــل يـــراود الوكلاء بأن كل بلاطة فى بيوت الحتة. يوجد تحتها كـــنز.. وحالات إدعاء الفقر والحرمان.. مكتسبة من التاريخ الطويل

للغزاه الأجانب الذين يأتون من أجل المال.. فيخفونه عنهم حتى ينهزموا ويرحلوا.. لكن الوكلاء من أهل الحتة ولديهم نفس الذكاء. إن لم نقول نفس الخبث والدهاء "لعبوا على هذا الجانب وربحوا."

واستمرت حملات الدعاية الموجهة وذلك الإلحاح المدروس، الذى يجعل أشد الناس بخلاً، يفك الكيس ويصرف ما فى الجيب، إنتظارا لما فى الغيب، ويقوم مرغماً بعملية الشراء ولو لمرة واحدة.. فمن أسلوب الدعاية الذى يدرس نفسية الناس فى مكان معين، وزمن معين. وجدو أنه بجانب وجود الناس الذين يميلون إلى الدنيا ويتكالبون عليها، فإن الوازع الدينى شديداً جداً عندهم. حتى ولو لم تبدو عليهم مظاهر التدين.. فقام الوكلاء باستجلاب الشيوخ، وبعض الأساتذة الأفاضل من علماء الدين. وجمعوا لهم الخلق ليعلنوا أمام الناس - ويتم تسجيل تلك اللقاءات وتبث على نطاق واسع - بأن شعبنا الغلبان، له كل الحق فى الرفاهية كشعوب أوربا وأمريكا.. وله أن يستخدم الكماليات على أنها ضروريات - فلم تعد الحدود واضحة.. والتليفون المحمول صار ضروريا للجميع. حتى للتلاميذ الصغار كى تطمئن أمهاتهم عليهم أثناء اليوم الدراسى. إن كانوا قد أكلوا السندوتشات أو عملو (بيبيه).. وهذه الكماليات التى صارت ضروريات. حرمتنا منها "فى مجال ضيق يقال عن العهود البائدة - عهود الكفر والزندقة" دون تحديدات قاطعة.. والحاذق يفهم الإيماءة!

وزيادة فى الإلحاح الدعائى، ظهرت الأفلام الطويلة والقصيرة تقدم أبطالاً عملهم الأساسى - وكلاء للشركات الأجنبية - يصارعون مجموعة من ذوى الرءوس الحجرية الميالين للتعقيد.. والمشغولون بتعطيل المراكب السائرة.. ويتغلب عليهم "البطل الوكيل" الذى يرتدى أفخر الملابس، وينام فى أفضل الفنادق. ويكون معشوق لمجموعة من

الجميلات.. وإذا ما عاد إلى قصره الكبير المحاط بحديقة غناء. يكون كل عمله العبقرى هو التحدث فى التليفون.. بينما يشرب كأساً، أو يقضم تفاحة، أو يقبل شفاة كالكريز "آلو.. نعم.. البضاعة وصلت الميناء.. عال خلص عليها وبع قبل السوق ما ينزل"
ثم يستقل سيارته الفارهة وبيده كذا مليون دولار فى حقيبة.."

شئ يلحس عقل المشاهدون الفقراء ويجعلهم يعيشون هذا الحلم اللذيذ المبهر.. بل ويستغرقهم، حتى يصير "حلم الثراء" السريع يسرى فى شرايينهم مع الدماء..
وهنا تقدم للعملاء الوعود بجوائز كبرى. آلاف الدولارات.. هدايا قيمة.. سيارات.. شقق خالية وتشطيب لوكس.. وذهب.. ذهب.. ذهب !!

وفى المسلسلات التليفزيونية التى تستقبلها ربات البيوت وأزواجهن يشاهدون الجميلة التى تعمل وكيلة للشركات الكبرى. تكون فى صورة الملكة كليوباترا الفاتنة. تغزو روما بفرع الشركة التى تعمل لها.. وكل عملها – بجانب مشاهد الحب مع أنطونيو.. هو حديث تليفونى فى المحمول :
".. آلو.. البضاعة وصلت المينا.. عال عال سلموها للعميل..
ثم تتخفف من ملابسها الشفيفة، وتلقى بجسمها على السرير الدائرى، الذى يدور حول نفسه.. فتسلب لب المشاهد الذى قد ينظر إلى زوجته المترهلة فى اشمئناط وملل – ويفكر اذا ما فجر مطبخه القديم أو حمامه القديم.. كيف يفجر زوجته القديمة، ويستبدلها بفاتنة من فاتنات الإعلانات!
وعلى هذا المنوال كل شئ كان يسير طبقاً للمخطط المرسوم. وبيوت الخبرة الكبرى تدفع بالجديد.. والناس

أصابها الهوس، واستدانوا وأجلوا أشياء مهمة. واشتروا.. ومن اشترى مرة.. وكأنه أصيب بحالة إدمان كيميائية، صار يشترى مرة أخرى.. وأخرى.. ولا يهم ماذا يشترى ..؟!

حتى كان ذلك المساء الأغبر.. عندما تململ أحد الزلنطحية من متوسطى الحال، قراء المقالات المزمنة.. من جملة المعلقين من عرقبوهم، فلاهم فقراء تجوز عليهم الصدقة، ولاهم من المستورين ليكفوا عن الشكوى.

هذا الزلنطجى كان قاعدا بداخل المقهى التى تقع على قمة الشارع الذى يلتقى بالميدان.. قال - هكذا من الباب للطاق. وكأنه يكلم نفسه:

"ما الذى يحدث لنا يا جماعة.. هل انضربنا فى يافخونا ؟ والسؤال فى ظاهره برئ.. وكان يمكن أن يمر كأسئلة كثيرة حائرة لا تجد إجابات. لكن السؤال نكأ كثيرا من الجراح فى صدور الجالسين فى المقهى. رغم استغراقهم فى لعب الدمينو وخبط قواشيط الطاولة، انتبهوا، والتفت إليه أحدهم مستفهما - فأستطرد الزلنطحى:

"سكتنا لهم.. دخلوا بحميرهم"

وهو مثل يحمل كثيرا من المعانى، وأحيانا يأتى مباشرة على الوجبعة.. ومع ذلك فالمثل له وجوه عديدة.. وكان يمكن أن يضيع فى الهواء المعبأ باللغط ودخان النراجيل.

لكن لسوء حظ هذا - الزلنطحى - أن ثمة رجل كان يعتقد أن لحم أكتافه من خير الوكلاء، فيما وراء وأمام البحار. سمعه بالصدفة، وفى الوقت نفسه سمعه آخر كان ضائقا بأن مصنع الملابس الذى يعمل فيه أغلق أبوابه أمام هلاهيل البالات المستوردة، سريعاً ما تجاوب مع الزلنطحى وقال:

- عندك حق يا أستاذ.. ما صدقوا.. ونزحوا البئر حتى جعلوه حفرة بدون ماء !

واقترب المقعدان المعارضان.. وتابعا نقاشاتهما، والجاسوس هاله أن عدداً كبيراً.. كفوا عن اللعب.. واندمجوا فيما

يقوله.. الزلنطحى الذى تمادى فى التحليـــلات، فيمــا هـــو ضرورى، وما هو غير ضرورى.. والجميع اتفقوا بأن ثمـــة أدوارا -غير وطنية- أصـــابت البلـــد بـــالركود.. وتســـلل الجاسوس - خارجا من المقهى يتلفت حوله فى حرص.

* * * * * * * * * * *

فى الفندق الكبير.. كان هناك احتفال يقام على شرف أحـــد الباشوات الجدد الذى يقوم بتسليك المســـائل فـــى دهـــاليز الحكومة.. والدعوات كانت تشمل معظم الوكلاء فى المدينة لحضور -اجتماع جانبى طارئ - يحدث عادة إذا ألمت بهم ملمة من الملمات.

وبينما كانت الموسيقا تصدح، والراقصات يتناوبن الرقص. تسلل الوكلاء إلى قاعة جانبية وعقدوا إجتماعهم الطارئ. لمناقشة (المصيبة) التى تبينوها بالصدفة.

وقام كبير الوكلاء بعرض المسألة فى اختصـــار - وإنتهـــى بعبارة مأثورة عنه "الوكلاء لا يلعبون النطة" واستمع إلـــى عدد من المداخلات التى اتفقت فى معظمها على قطع دابـــر هذا "الزلنطحى" وانتهوا إلى الإستماع لكلام الخبير. إذ إقترح وضع قنبلة فى حقيبة تترك تحت أقدام الجرثومـــة. وتفجـــر بالريموت.. كمضاد حيوى يطهر الجسد من أمثاله. وســـأل أحد الوكلاء -بأن الجرثومة دائمة التواجد بالمقهى. ودائما يتحدث هناك.. ويخشى أن يقتل خلق أبرياء عند التخلـــص منه.

وقال كبير الوكلاء وهو يداعب حبات مسبحته:

- كن مؤمنا يا عزيزى.. كل شئ مقدر ومكتوب. ومن له عمر لن يموت حتى لو ألقيناه فى البحر.. ومن يموت مع الجرثومة سيموت لأن أجله قد حان.. إنها إرادة الله يا أخى..!!

* * * * * * * * * *

فى مساء أحد الأيام الخريفية.. روع الشارع الذى يقع على طرف الميدان بانفجار فى المقهى. حطم الزجـــاج والآثـــاث وقتل وأصاب مجموعة من الرواد.

واكتظ الميدان بسيارات الشرطة ذات الـــبريق والأصـــوات الناعقة.

وكان -الزلنطحى- قد قام ليبول وعاد من الحمام مخترقـــا الطرقة الرفيعة.. يسأل عقب سماعه للانفجار.. عما حدث.. وهو فى أشد حالات الهلع ....!

[بعدها إستخدم الوكلاء خمسة محـــاولات أخـــرى لقتلـــه. مختلفة الأساليب ولكنها جميعا بالصدفة.. باءت بالفشـــل.. وفى كل مرة كان الزلنطحى يتساءل فى هلع:

- ماذا حدث،.. يا جماعة؟

حتى بات الوكلاء فى جنون.. من هذا الزلنطحـــى الـــذى لا يموت؟!



دعانى، ترددت، ثم ذهبت إلى حفلته. هو بارع فى الجـــذب. يلح فى دعوته بطرق غاية فى الالتواء. بعض هذه الطـــرق يرتبط بمصلحة مهددة بالضياع.. فيما يشبه الضغــط غــير الصريح...

وبعضها يرتبط برغبة المدعو، فلا يستطيع المدعو.. الفكاك أو إغفال الدعوة..

كان يحرص على أن يدعونى إلى حفلته.. كما يدعو معظم من يتصارع معهم فى "السوق" مع أنى أبعد ما يكــون عــن سوقهم الذى يجنون منه الثروات.. فيتحولـــون فيـــه مـــن آدميين إلى حيتان وأفيال!

منذ صعود نجمه فى عالم المال والتجارة وإســتقراره فـــى سماء أصحاب النفوذ.. صار محصنا فـــى مكانـــه العـــالى، لاتطوله.. شكوى المظلومين، ومن يستغلهم، أو يحطمهم فى صخب صعوده..

*وفى السنوات الأخيرة -لعله قد هدأ من الجرى اللاهـــث- صار يهتم بالمنافسين القدماء الذين أفلتوا من ســـطوته، أو الذين دهستهم أفياله.. يدعوهم إلى موائد حفلته، ويضعهـــم جميعاً فى الصف الأول، بجانب من أمن شرهم وسلموا له.. فيما يطلق عليهم "الأصدقاء الأوفياء"

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كان فى حلته الأنيقة.. وكأنه فى ليلة عرسه، يعـــود شـــابا نشيط الحركة، يقوم بنفسه باستقبال ضيوفه، ويثبت للجميع

أن لديه القدرة على أن يشعر كل فرد فى حفلته الكـــبرى.. بأنه الضيف الوحيد صاحب الإمتياز.. يتبادل معه.. ما يتلائم والجسور التى مشـــيا عليهـــا يومـــا فـــى إســتدعاء أرق الذكريات..!

وكأنه يقيم حفلته العظيمة التى يستمر صداها فى أحـــاديث المجتمع.. من أجل تلك اللحظات التى يخاطب فيهـــا ضيفـــه ويتذكر معه ما كان. حلواً أو مراً..!

* * * * * * * * * * * * *

ومع أنى لم أكن نجما أو قمراً.. ولا حتى بارقة.. فى سماء عالمهم.. كان يدعونى بالبطاقـــة التـــى ترســل لـــى مـــع مخصوص- محاط بالأبهة والفخامة كعنوان علـــى ثـــرائه. ويقوم بنفسه- رغم مشاغله ووقتـــه الثميـــن- بالإتصـــال التليفونى لزيادة التأكيد علىّ بالحضور.. أتردد.. ثـــم أجـــد نفسى أجهز أفضل ملابسى.. وأذهب. عندما يشاهدنى زائغا بين الأضواء.. يسارع بأن يتقدم نحوى. تحت نظر الجميـــع ومتابعاتهم، يحتفى بى،ويشد على يدى مرحباً.. ويقول شيئا يعيدنا إلى أيام الدراسة الثانوية.. تلك الأيام الفقـــيرة التـــى نحتنا صخورها بالأظافر. وقتها كان وضعى الطبقى أفضـــل منه.

****

ما يقوله كل عام.. يختلف عما يقوله فى كل حفل.. ولكنـــه يحمل نفس المعنى ومدلوله الواضح:

"لعلك الآن يا زميلى العزيز قد اقتنعت بأنى صرت فوق وأنت لم تزل تحت.. أنا فىالسماء وأنت على الأرض. يمكنـــك أن تتطلع إلى وتسعد.وبعدهـــا يســلمنى للخـــدم والمعـــاونين، يوصلونى إلى مكانى على المائدة، ويقدمون لـــى البدايـــات الاحتفالية.. من المشروبات والمأكولات المدهشة..

أجلس وأتأمل الذين حولى.. الـــوزراء والكـــبراء، ورجـــال الأعمال.. ووجوه أجنبية وأسيوية وعربية خليجية.. ما كان

ليعرفهم ويعرفوه إلا إذا صار من طينتهم، ويملك حظهم فى الحياة ..!
وأنا "الموظف".. صاحب المرتب المحدود..
أعيش بين رجال المال والاقتصاد والتجارة.. لحظات من كل عام.. كمن يشاهد فيلما سينمائيا، فيستغرق فيه
يستغرق أكثر إذا أتى الخادم بطبق الحلوى أمامى.. مشـــكل بأنواع فاخرة من الحلوى الشرقية والغربية، والتى صاغها الصياغ- وكأنها أشكال من أحجار كريمة..!
ومع إغراء طبق الحلوى، الذى لايمكن أن يقاومه مرضـــى السكر... فإننى وحتى شهيتى مفتوحة، ولعابى يتحرك، فـــلا بد من أن يكون تصرفى أمام الأطباق مناسبا لمن يجلســـون حولى ويتعففون..
فى الحفلات العامة وبين رجال المال.. يجب أن لا ننكـــب- بأسوب الطبقة الوسطى على الطعام. وإن كان فى ذلك متعة طبقتى الوسطى، الوحيدة.. أن نأكل بتلذذ- يفوق كل عذابات حياتنا وإلا كيف نموت ؟!
*لكن من يشعر بأنه تحت المراقبة، لابد وأن يقيد رغباتـــه ويسلك فى تصرفاته وحركاته أساليب "الإتيكيت" بكثير مـــن التعفف المصطنع والترفع الظاهرى..!
*أدرك أن هذه الحفلات تقترن بما يقدم فيهـــا مـــن أنـــواع المشروبات الروحية، والأطعمة الفاخرة، والأماكن الأنيقـــة، أجد نفسى مكبل بكثير من الإحتياطات. وأحـــرك يـــدى فـــى تثاقل. أتوق لتذوق الأشكال المدهشة التى وضعـــت أمـــامى وأنا الذى يشعر بالضعف أمام الطعام الجيد.. وخاصة فـــى صورته العليا، وتنسيقه الإبداعى.. وتلك الأشـــكال التـــى لا تساعدنى إمكانياتى على شرائها..
*وقد رأيت أن الفترة الزمنية بين تشريف الطبـــق أمـــامى، وعزمى على التذوق منه، ثم زيادة المعدلات حتى تصل إلى حالة الاشتباك الكامل. مناسبة لأصول الإتكيت المتبع.. فـــأن

أى شخص عادى سيعرف كيف سيتصرف "إتكيتيا" ومع إننى أشعر فى قرارة نفسى بأن معظم الذين يحضرون هذا الحفل العظيم، ورغم مظهرهم الثرى البراق، هم من جذور أضعف من جذورى .. ومعظمهم نحت الصخر .. أكثر من صاحب الحفل .. نجمهم المتألق فى تلك اللحظة بالذات.

*وقد شجعنى أن بعض الضيوف شرعوا فى الاشتباك مع أطباقهم وصار لاصطكاك الشوك والسكاكين صوتاً يفوق الهمس واللغط.. تماسكت لحظات. مؤثرا أن أتمهل لأتفوق على بعضهم فى التمسك بالمظهر المتعال، فالطبق أمامى وفى حوزتى، فلماذا العجلة .. فلأتشاغل ببعض الأحاديث مع جارى الودود الذى كان يتحدث مع شخص بجانبه فى بساطة .. لعله مثلى، يدعوه صاحب الحفل ليحفر ذاته بداخله ويعمقها .

"كان حديثهما يدور حول مناقب وافضال صاحب الحفل، وأياديه البيضاء على المجتمع الجديد" .

*وكان من الواضح أنهما لا يعرفان شيئاً عن (تاريخ) صاحب الحفل، وأن ما لديهما يقتصر على السنوات العشر الأخيرة التى صعد فيها نجمه -على أثر جمعه للمليون الأول الذى توالد أناربا أخرى عديدة.. وكلاهما خضعا لما يذيعه وينشره عنه مدير دعايته -خريج المعاهد الأمريكية- والذى جعل منه الإنسان العبقرى.. الذى تصادف وجوده فى زمننا المحظوظ.. وما علينا إلا أن نشعر بالزهو والفخر أننا نتنفس الهواء الذى يتنفسه .

ومع أننى اقتنعت أخيرا - أنه من السذاجة إسقاط نجم بحجر. كان لابد وأن تكون إجاباتى مطابقة لأسلوب الدعاية الامريكى، فقد كبت رغبة ملحة فى أن أوضح.. بأن هذا العبقرى، زميل المدرسة الثانوية.. كان غالباً ما يأكل منى شطائرى بكثير من الحيل..وإذا امتنعت، كان يلجأ لاستدرار عطفى بالدموع..!

وتمكنت فى آخر لحظة أن أواصل الابتسام مع هز الـــرأس موافقا على ما يقولانه، وهو اســـلوب خبيـــث يجعـــل مـــن يخاطبك يتمادى فى سفح معلوماته وأخباره الزائفة وغـــير الزائفة -كما بقيت أضيق الخناق على رغبتى فى الإفشاء- والأسرار كجمرالنار فى الأحشاء -وفيما يبـــدو أن الخنـــاق كان قاسيا، فتتت الرغبة بداخلى إلى شظايا. بعضها صعـــد إلى شهيتى فأبطل مفعولها ..

*إلا أنه بالنظر إلى ما فى طبقئى -كنت آمل أن يعيـــد إلـــى شهيتى وهو ما حدث بالفعل.. تناولت قطعة من الحلوى على طرف الشوكة ورفعتها إلى فمي. وقبل أن تصل إليه، وقـــد فغرته بما يكفى لاستقبال حمولة طرف الشـــوكة. انهمـــرت الذكريات التى يخص معظمها ذلك الذى دفع فاتورة الحلوى، وتكاليف الحفل .. فخيل لى بأن قطعـــة الحلـــوى مختلطـــة بالدماء.. بعض من دماء ضحاياه فى صراع السوق بقيمـــة الجديدة.. والطرق المبتكرة فى جمع أموال الكـــادحين فـــى الخارج والداخل.. ولعل ذلك -لم يكـــن مـــن أجـــل هـــؤلاء الضحايا-

وأنا لم تكن لى ودائع فى تلك الشركات، ضياعهـــا يحـــرق آمالى فى الحياة.

ولكن كان بيننا ذلك العناد القديم.. عندما كان فـــى إمكـــانى معاندته والتفـــوق عليـــه، ومخالفتـــه وإرغامـــه علـــى أن يتبعنى..!

* * * * * * * * * * * * * *

عدت بالشوكة محملة بقطعة الحلوى إلـــى حافـــة الطبـــق. متشاغلا بالإستماع إلى ما جاء فى أقوال جارى.. إبتســـمت وتشاغلت بفتح زجاجة مياه معدنية أوربية. وأخذت أصـــب الماء فىالكوب البلورى "أنه يتعمد أن يتجاهلنئ طوال العام، ولا يتذكرنى إلا فى حفلته السنوية- وماذا فى ذلك، لقد صار

وقته من ذهب. قل من ماس.. أما وقت سعادتك فيملك أكوام منه الصعاليك..

والدعوة إذا ما وصلت لك سال لعابك على أطبـــاق الطعـــام الفاخر ككلب بافلوف..

*"فى إمكان الكلب أن ينبح ويهز ذيله.. يقفز هنـــا وهنـــاك ليحصل على ما يريد.. أما أنت.. المكبل ببقايا من قيمّ.. مـــا الذى يجعلك ترتدى أفخر ثيابك وتحضر إلى هنا لتكون ذيـــلاً فى الطابور.

هل هو الحقد الدفين.. أن يتفوق علينا أصحاب اللا مواهب الخاملون فى شبابهم. فتجد نفسك فى أسوأ حال.. أم أن مـــا تستشعره ينبع من موقع التختة والأمـــاكن التـــى ضمتنـــا شبابا..؟

..تلك المقارنة التى ليست فى محلها الآن، ماذا لو لم يكن صاحب الحفل زميلا لى، هل كنـــت أستشـــعر نحـــوه تلـــك المشاعر التى تقع وسطا بين الحب والكراهية؟!

وبقيت جامداً.. يدى لا تطاوعنى لآكل شيئا مما قدم لى..

ولعله قد مضى وقت طويل. فقد شرع الخدم فـــى ملابســـهم السوادء التى صارت تشبه ملابس "عسكر الأمن المركزى.." يجمعون الأطباق من فوق الموائد..

*جاء أحدهم ورفع طبقى.. أفقت وهو يتحرك أمام بصـــرى فشيعت الطبق بما عليه. بنظرة، قرنتها بإبتسامة، حـــاولت أن أجعلها تعبر عن الشكر. لهذا "العسكرى" الذى يعمل فـــى صمت وتجهم.

*لو كان هذا الخادم.. خادماً بالفعل.. لأدرك بأننى لم أتناول شيئا من نصيبى. وترك الطبق أمامى- ها قد بدأت أندم على ما حدث.. كل الأطباق التى رفعت كانت تضم بقايا، أو كانت نظيفة مما عليها..

لكن الخدم المتجهمون، يتحركون تحت نظرات متبادلة مـــن الحرس الخصوصى الذى يحيط بالمضيف.."ارفعوا الأطبـــاق

فرفعوها.. كما رفعوا الصوانى الكبيرة التى تتوسط المائدة. محملة بصنوف الطعام المختلفة. على أساس التقديم منهـــا لمن يرغب فى المزيد..
*وعندما رفعت الصوانى التى كانت تحمــل أهرامــات مــن الحلوى. تبين لى ، بأن المضيف، كـــان يجلــس مباشــرة أمامى.. ولعله شاهد بأننى لم أتذوق حلواه وطعامه.. كـــان فى إمكانى أن أتعامل مع الخادم بشئ من الصفاقة والترفع، وأطلب منه أن يدع الطبق مكانه..
لعل مضيفى قد شاهد تعففى العنيد- سأطلق عليه "العنيــد" مادام قد حدث.

* * * * * * * * * * * * * *

وتلقيت إبتسامة من بين دخان ســيجاره وزر إســورة كــم القميص الماسى يشع فى عينى. وعندما وقفــت وتهيــأت للانصراف. أقترب منى يسألنى إن كانت الحلوى التى صنعت خصيصا فى فرنسا ونقلت فى نفس اليوم بالطـــائرة.. قــد أعجبتنى ..؟!

* * * * * * * * * * * * * * *

*كنت متيقنا بأنه يعلم بأننى لم أتذوق حلواه.. ومــع ذلــك جعلت وجهى يستقبل ابتسامة عريضة وأنا أقول:
- لذيذة.. لذيذة جداً..
ولصق إبتسامته بجانب فمه وقال:
- هل يمكن أن تقول بأنها أفضل من العام الماضى ؟
"العام الماضى لم أتذوق طعامه وحلواه".. ومع ذلك قلت:
- بدون شك.. فأنت من حفل إلى حفل.. ومن عام إلى عام..
....
هز رأسه فى عجلة ولمس ذراعى.. وانشغل بمدعو آخر هيأ نفسه للانصراف.. تبادل معه بعضاً من الحديث، وهــو فــى منتهى النشوة..
هكذا يتظاهر.. كما أنا... أتظاهر ...

"أستاذنا المفكر..يفكر"

□ أستاذنا المفكر الذى زار البلاد الباردة زيارات خاطفة- على حساب الحكومة- التى ينتقدها أحياناً.. قال ضمن ما قال:

- "من المعلوم للخاصة.. أن المفكرين فى البلاد الباردة وناسها يتكلمون فيخرج الدخان من حلوقهم.. أنهم هناك يحركون أفكارهم بالخمور المعتقة، واللحوم الملبسة بالدهون.. خاصة فى أيام الشتاء قارصة البرودة.. أما عندنا.. إذا شربنا هذا السائل، وأكلنا بعض الطعام الدسم، أطبق على مراوحنا، وطلع بأرواحنا إلى بارئها"

وقال أستاذنا المفكر- إذ كان دائماً يقول ونحن نستمع له:

- "من المعلوم لأصحاب التجربة_ أن المفكرين فى بلاد الثلج، قد إخترعوا الكثيرمن الوسائل التى توفرلهم الوقت، وتدخر لهم حركة الأجسام الآدمية، مع أن بلادهم الباردة تشجع على الحركة، وأجوائهم تطارد الوهن الملاصق للحر الشديد] وأشارإلى أن الفساد والتلف يقتحمان سريعاً، المادة الحيوية فى الأجواء الحارة_ والميكروبات والجراثيم تنشط بجنون فى البلاد الدافئة.. بعكس البلاد الباردة.. التى هى ثلاجة كبيرة]

وقال الأستاذ:

– ومع أنهم هناك يدركون تلـــك المفارقـــة فـــإنهم "وخاصة الذين يعملون مثلنا فى الفكـــير." إذا مـــا غلبهـــم النعاس. ضغطوا على زر مصباح الكهرباء الذى يستقر فوق الوسادة_ الآن أدخلت النظم الإلكترونية تســـهيلات جديـــدة. فإذا صفق المفكر ينطفئ المصباح أو يضئ.. أيا كان الأمر، فهم هناك يستقبلون النعاس مقرونـــاً بـــالوهن، والخـــدر، والدفء تحت الأغطية الثقيلة. وبذلك يغلقون البـــاب علـــى آخر فكرة تطرق أذهانهم، يحيونها وينـــامون نومـــاً هادئـــاً هانئاً.. يكون عوناً لهم إذا ما بـــدأت عقولهـــم فـــى طحـــن الأفكارمن جديد، يبدأون باصطياد الفكرة المحتبسة من الليلة البارحة. ويشتغلون عليها. يبدأون من حيث توقفوا.. وليس من البدايات الجديدة مثلنا!

* * * * * * * * * * * * * *

• وعندما كنا نهز رؤوسنا بالموافقة، ولانعلق، كـــان يستطرد:

–"أما فى البلاد التى تتوهج بالشمس.. والأجواء فيها عادة ما تكون حارة ليلاً، شديدة الحرارة نهاراً. فلا بـــد وأن يقوم المفكر _بـــذات بدنـــه ونفســـه– ليضغـــط علـــى زر المصابيح.. لوقف نزيف فاتورة الكهرباء، ويقـــوم بحفـــظ الطعام المتبقى فى الثلاجة، ويغلـــق أنبوبـــة البوتجـــاز، أو محبس الغاز.. منعا لوقوع حوادث مفاجئة، ويسنكر النوافذ المفتوحة ليصد اللصوص.-هنا– حركة البدن تعـــود إلـــى نشاطها، وقد يتواصل التفكير.. فيشرب المفكر فنجاناً آخـــر من القهوة،التى على الريحة.. وقد يشعر بالجوع، مع سهاد المساء، فيأكل العَيْش المحمص بالجبنة القريش. أو يقـــوم بتسخين شربة لسان العصفور "الذى يغـــرم بهـــا أســـتاذنا" وبذلك يهرب النوم منه.. ويسلمه للسهاد على إيصال، حتى ينبلج الصباح.. ويبدأ ضجيج النهار الذى هو معاشاً."

* * * * * * * * * * * * * *

● ولما كنت أعرف أن أستاذنا يغـــرم بمـــن يســـتمع ولايعلق،فقد شعرت بأن أستاذنا وضع أمامنـــا جـــزءاً مـــن الإجابات عن أسئلة لاندرى لماذا أثيرت. وأســـتاذنا المفكـــر شرقى، من الذين يتسلمهم السهاد والأرق -قد يفكـــر فـــى أستغلال الوسائط الغربيـــة، وخاصـــة زر مصبـــاح النـــور الإلكترونى- مستفيداً من التطورات العلمية التـــى يحـــاول البعض التقليل من شأنها.. وذلك على إعتبار أنها بضاعتنا التى تسللت اليهم من الاندلس- وجنوب إيطاليـــا، ومنـــافذ أخرى غير مباشرة. كطرق التجارة القديمـــة، التـــى تقطـــع بلادنا الوسيطة، وخاصة فى مسألة إطفاء المصـــابيح دون القيام من فوق السرير ..

● وحديث أستاذنا له أهمية خاصة فى مسألة محبس أنبوبـــة البوتجاز- أو محبس الغاز.. وحوادث أختناق مفكر كبـــير.. وعالم خطير.. وفنان قدير.. بالغاز والبوتجاز،لاتزال ماثلـــة فى الأذهان؟!

بذلك أثيرت "قضايا" جديدة- وجب أن يطرحها علينا أستاذنا تفصيلا ..

"إذ تساءل -عمن ســـيغلق النوافـــذ بإحكـــام؟.. وحـــوادث السرقات تتضاعف مع عصر الإنفتاح،ووقـــف التعيينـــات. وتصفية الشركات القديمة، التى كان مـــن أهدافهـــا- حـــل واحدة من المعضـــلات الإجتماعيـــة، فحاســـبوها بـــالربح والخسارة. وفى إعتقاد أستاذنا- أن بعض العاطلين ســـوف يمتهنون اللصوصية، والعمل فى الهجوم على المنازل..

●وأخذ يبين لنا أنه ما دام سيتحرك، وسيستخدم بدنـــه مـــرة أخرى، بعد أن يغمره الوسن- فمن الطبيعى أن يهرب منـــه النوم،ويسلمه إلى السهاد، كما أن المحاورة ستستمر بينـــه وبين السهاد، على المخدة، حتى ينفلق الخيط الأبيض مـــن الخيط الأسود.ويطلع النهار، ويغنى الراديو- طلعت يا محلا نورها، شمس الشموسة- بما يعنى بأن مسأله هروب النوم

ستصير مشكلة معقدة فى ذهن أستاذنا، على الأقل، قد تنجى مسكنه من السرقات المتوقعة – ولكن، مسألة السهاد فيما يبدو، كانت هذه المشكلة من أهم المشاكل التى تؤرق ذهن أستاذنا المفكر، الذى شغلته الأساسية هى– التفكير .

****

●.. ولما صارت المشكلة.. مشكلة.. وضع أستاذنا "المشكلة" تحت وهج التفكير المستمر.. وراح يقدح زناد تفكيره، بحثاً عن حل لها.. وإذا به يتبين بأن بيته –أو كما يسميه"صومعته"– يخلو من "المرأة"،التى تجاهلها طويلاً على إعتبار أن إمرأة سقراط.. وإمرأة تولستوى.. صدتا نفسه.. ومثالهما واضح دائماً فى ذهنه..

●ولعل هذا الإكتشاف، هبط على ذهن أستاذنا، كما هبطت فكرة الجاذبية الأرضية على ذهن أحد المفكرين.. لما سقطت التفاحة الناضجة من الشجرة على أم رأسه فآلمته...!

****

●..وفى تلك اللحظة، كانت إحدى الجارات قد فقدت أعصابها أمام غتاتة أولادها، فصرخت بالصوت الحيانى..

"يا دهوتى.. طينتوا عيشتى إنتم وأبوكم يا.. يا.. يا..

"وإنهالت بقاموس السباب المنتقى"

والصرخة كانت حادة، فألهمت أستاذنا بالفكرة –"المرأة التى يخلو منها منزله"– وطرح على نفسه السؤال، فى صيغة مختزلة.. [لماذا لا أتزوج؟!] وعادة ما تأتى الأسئلة، بمشاكل جديدة، تشغل بال المفكرين أمثاله.. ونحن تلاميذه، قلنا جميعاً لبعضنا..

- فعلاً لماذا لا يتزوج الأستاذ؟.. حتى يتخلص من السهاد.. ويخلص لنا، وللتفكير، والفكر؟!

وإجتمع رأينا على أن الزوجة هى التى ستقوم بغلق أنبوبة البوتوجاز... والتأكد من غلق النوافذ، كما أنها ستهتم بأن تحفظ باقى الأطعمة فى الثلاجة -توفيراً لجهد يضيع فى المطبخ- عندما تقوم المرأة بإعداد الطعام المفضل لأستاذنا. ذلك الطعام الذى سينحصر فى (شوربة مكرونة لسان العصفور) -ومن جهة أخرى، يمكن -وأستاذنا مستغرق فى تسويد المسودات- أن يطلب من المرأة إعداد فناجيل القهوة على الريحة.. بأى عدد يريد.. أما إذا نام، فإنه سينام مستسلماً للوسن، دون حركة من بدن، تعيد إليه السهاد، بما يعنى أن أستاذنا ينام نوماً عميقاً -كما نوم الأطفال- بدون خمور، وطعام دسم، وأغطية ثقيلة (كما فى الغرب) مما يجعل أستاذنا ينافس فلاسفة البلاد الباردة.

- ولعل أستاذنا، إنزعج من فكرة الزواج، وظن أن وجود زوجة فى حياة المفكر، قد تأخذ شيئاً من طباع زوجات المفكرين المشهورات بالنكد.. ومال إلى العشيقة أكثر.. عندما يظل الحب حراً غير مقيد، فيزداد الطرفان إلتصاقاً، ولا يعرف النفور طريقه إلى حياتهما. وله فيما حدث بين سارتر وسيمون دى بوفوار -أمثولة- ولكن بدون تفكير عميق وجد أستاذنا أن موقعنا فى الشرق يفرض علينا أن نتزوج على سنة الله ورسوله.. ولا تقارن الزوجة بالعشيقة.. ولكل منهما -مشاكلها- التى قد تؤرق أكثر، من سهاد التفكير الإيجابى..!
- ومع ذلك، فإن أستاذنا فكر فى أن يجمع بين الزوجة والعشيقة، بأن يتزوج من إمرأة جميلة.. حتى يمكنه أن يتفرغ لتسويد أوراقه بصورة مرضية.. ليكتنفه الزهو بعبقريته، فينام قرير العين. والتجربة أثبتت بأن الإحساس المدهش بالزهو، سيسلمه إلى حالة من الإستكانة والهدوء.. تبعد عنه الأثر العكسى الذى يطير النوم من عينيه..!

• لذا فقد قام أستاذنا (فكريا) باستدعاء كل النساء اللواتى قابلهن فى حياته، وأخذ يقلب فى وجوههن، وأجسادهن وطباعهن.. "من المعلوم أن المفكر يستدعى النساء فى ذهنه دون اللقاء الشخصى بهن. فهو ليس كرجل الأعمال الذى يستدعيهن جميعاً فى حفل بهيج، يراقصهن، ويقترب منهن حتى يختار واحدة أو أكثر.." وإنتهى أستاذنا المفكر إلى التركيز على واحدة بالذات.. خفق لها قلبه يوماً !

• ثريا.. إمرأة تجمع بين الجمال الداخلى والخارجى، كما تجمع بين الإهتمام بنفسها، فتبدو دائماً إمرأة جميلة متألقة.. تهتم بمن حولها.. فتبدو عاطفية وودودة، ومحبوبة.

• وصار يأمل فى أن يكون عقلها قد نمى ليصير فى مستوى جمالها "وهى المعادلة النادرة الحدوث فى وسطه على الأقل" وكانت هذه السيدة قد أحاطته يوماً بشئ من الإهتمام فتركت فى نفسه أثراً لا يزول.. وقتها كان ضيفاً يقوم بدور يرافق قريب لها -ومنذ ذلك الوقت- إذا ما فكر فى النساء، حضرت ثريا بأنوثتها إلى ذهنه كنائبة لكل النساء.. أما وقد حان الوقت لمفكرنا الذى قرر فيه الإقتران بإمرأة.. فلتكن ثريا هى تلك المرأة – وتمنى لو أنها لم تكن قد إرتبطت بآخر..

• عندما ذهب إليها أستاذنا.. وجد أنها كانت منذ زمن طويل فى إنتظاره..!
قالت له: أنا كنت واثقة بأنك ستأتى!
فأصيب مفكرنا بالرعب من ثقتها المفرطة بنفسها -وهو المفكر الذى يريد أن يحتفظ لنفسه بكامل رصيده الحر من الموقف. وعليها أن تسلم له بأن يكون هو صاحب القرار"

إن لم يكن من أجل "القيامة على النساء كرجل" - فمن أجل موقفه كمفكر، شغلته التفكير!

• والست ثريا التى إزدانت وتعطرت.. أمكن لها بأن تجعل أستاذنا المفكر، يؤجل كل المواضيع إلى وقت آخر، ويتخذ القرار النهائى بالقرب منها.

****

• أستاذنا المفكر، إذا ما دخل فى نطاق المرأة الجميلة.. وإحتوته فى أحضانها.. إنتقل إلى دنيا غير ذات دنياه السابقة «التى رآها كصحراء» جافة كبيداء.. وصار ينام كالأطفال نوماً هادئاً، وعميقاً، وهى تهدهده برعايتها وحنانها..

• "وكف أستاذنا عن اللقاء بتلاميذه، إذ أجل الموعد الذى ينعقد إسبوعياً إلى أن يكون شهرياً.. وراء شهر.. ثم صار لا يؤجل.. ولا يحضر..

• "ولكل أستاذ تلميذ قريب إلى نفسه.. يبيح له كسر القواعد» ذهبت إلى أستاذى لأطمئن عليه..

• فى البداية حاول أن يبدو أمامى سعيداً بما هو فيه.. ثم سريعاً ما أفصح عما يعانيه من مضايقات، فقد كان يضايقه أن زوجته الجميلة تتعمد إيقاظه من سباته العميق «كى تثير معه مواضيع لا قيمة فلسفية لها - وإذا ما أفاق، وهرب النوم من جفونه، يلاحظ أنها إزدادت تألقاً، وإنها تقدم له نفسها فى صورة جديدة، فيلتقى بإمرأة أخرى غير التى كانت فى أحضانه أمس.. لذا يجد نفسه فى أحضانها، ويقول لروحه - عدة ليال أخرى من السهر الحلو.. لا تضر.. بل قد تفيد الجسم الذى أنهكه التفكير - ويقول لنفسه - أنها تتزين كعبقرى.. فمن الواجب أن لا أكسر بخاطرها.. كزواق لإبداعها!

• ولعله كان يدرك بأن ذلك لن يفيد العقل كثيرا، ولكنه كان يقنع نفسه بأن ذلك لفترة محدودة، ويعتقد أن الجسم إذ لم يكن لديه فائضاً ما كان يشتهى ويميل.[كما أن البندقيـــة يجب أن تتم تجربتها جيداً قبل حفظها فى دولاب الأسلحة..!]

****

• ..ولما إستمرت المرأة الجميلة.. جميلة ومتألقـــة.. وإستمر أستاذنا المفكر، يفكر فى تجربة البندقية.. بطلقة أول الليل، وطلقة آخر الليل.. قبل حفظها فـــى دولاب الأســـلحة.. حاول أستاذنا أن يتناسى أن ذلـــك علـــى حســـاب تســـويد المسودات، والتفكير فى حل المعضلات.. ومع ذلك فقد بـــدأ يفكر فى المسألة من زاوية- كيف يفاتح زوجته الجميلة فى موضوع تخزين البندقيـــة فـــى دولاب الأســـلحة.. دون أن يتطرق إلى ذهنها شكا، بأن ثمة عيباً طرأ علـــى البندقيـــة، يحاول أن يخفيه عنها..!

• والمفكر كلما شرع فى فتح هذا الموضوع.. تلعثـــم أمامها.. وعملياً كان يثبت لها أن رجولتـــه كاملـــة وغـــير منقوصة.. والمرأة التى كانت تأتى له كل ليلة فـــى صـــورة إمرأة جديدة.. قالت له:

-يسعدنى يا زوجى العزيز أن ألبى لمفكر مثلك كـــان يـــأكل الطعام المحفوظ، وطبق شوربة لسان العصفور، مع ســـلاطة الجرجير بالطماطم.. ثم يحتسى عدداً من فناجيل القهوة على الريحة.. أن أصنع له يومياً.. شوربة لسان العصفور.. على لحم الدواجن البرابر..

• ثم أعربت له عن مبلغ سعادتها، بأن مفكراً مثله يتقن فنون اللقاء الحميم بين الرجل والمرأة.. وهى التـــى كـــانت تظن أن أمثاله من المفكرين لديهم عدة طلقـــات يطلقونهـــا إعتباطاً.. ثم تصير بندقيتهم أشبه بنبوت الخفير..!

• وأستاذنا المفكر إنكمش.. وخشى أن فاتح إمرأته فى مسألة تخزين الأسلحة.. يصيبها بالإحباط.. ودهشته كانت عظيمة، أن زوجته تستخدم نفس التشبيهات، مع أنها تشغل نفسها طوال الوقت فى التزين الذى يربك له أفكاره!

****

• وواصلت الزوجة العشيقة كيل المديح لجهود أستاذنا معها.. وإستفسرت منه إذا ما كان زوجاً لثلاث قبلها -فلما أنكر ذلك- وأقسم بأنها إمرأته الأولى.. قالت له:
- ولكنك فى ذلك خبير جداً يا أستاذ !

• إزداد أستاذنا زهواً بنفسه.. ولم يفكر كيف أمكنها المقارنة بين خبرة وخبرة.. ولكن كثرة التفكير، دفع فى ذهنه بمقولتها التى أقلقته، وبتوالى الليالى.. صار أستاذنا دائماً مشغول البال، ولكنه ليس حزيناً، فهو عندما يفرغ من هدهدة البدن.. ينام نوماً عميقاً.. وعندما يستيقظ.. يجدها أمامه أكثر نشاطاً وتألقاً، ولما لم يسلم أستاذنا لهذه الحالة.. تماماً.. صارت "المشكلة" أنه يفكر فيها كثيراً، وبذلك كان المفكر لا ينام.. وزوجته الجميلة.. بعد اللقاء الحميم، تغط فى النوم العميق.. لذا فقد تسلمه السهاد المؤلم المزحوم بالقلق..

• ومن تلقاء نفسه، كان أستاذنا المفكر يقوم ليطفئ الأنوار.. ويقفل محبس البوتوجاز، ويسنكر النوافذ.. ويحفظ أوانى الطبيخ فى الثلاجة.. ويعمل لنفسه فنجان قهوة على الريحة.. وإذا جاع يأكل طبقاً من شوربة لسان العصفور.. التى يغرم بها كثيراً...

السقف الطائر

لرأس صديقى المتفائل

* منذ تخرجت من الجامعة ولعشر سنوات أواجه البطالـــة، أحاول شق طريقى إلى السقف المهترئ .. مصاحبـاً معــى كثيراً من الضحكات الجوفاء - لاعتاب على تلك الضحكـات الجوفاء فهى ضرورية كى نتلهى بها.. نكيد بجلجلتها مــع شيء من التهريج،ذلك الذي لا يضعنا في اعتباره ، ويزيحنا بعيدا عن إهتماماته .. وكأنه لم يكن شاباً يمتلئ بالطموح .. ولم تحمل-الدولة- همومه.. !"

* لقد صار الساخط على عدم حضور الحافلة .. بداخلهـا .. ويحض السائق على أن "يحرق" المحطات ليصل إلـــى محطته المرجوة.. ناسيا .. ما كان يعتمــل بداخلـه وهـو مصلوبا علي المواقف .هذا الذي لا يضع إلا نفسه فى بؤرة الاهتمام .. لماذا يكشر عن انيابه - اذا ما تناهت اليه ضحكاتنا-ويغمم - شباب رقيع .. قلة حيــاء .. مــا الـذى يضحكهم؟ "

* * *

أعلم بأن أمراض الكبد خطـــيرة .. وأن مــا يمكــن أن نشتريه بإمكانياتنا .. تزداد فيه نسبة السموم .. والكحوليات تقوم بدور خطير فى تدمير الكبد .. خــط الدفاع الأول فـــى مواجهة السموم .. لذا .. لا أدرى ماذا سيكون تصرفــى اذا ما واصلت تجرع بضع كئوس أخرى ..

*صديقى الذى كان يتباهى بأنه يشرب المحيط - اصيبت رأسه بانفجار .. اطار له سقفه ..
كان يقسم بالبخارى (أحد علماء المسلمين)
بأنه برئ، وبأنه ضحية للحظة طيش وأغراء."
" الرجل جميل المحيا، صاحب الصوت الرخيم .. الوارث لتقاطيع وملامح الترك والشركس والقوقاز وشئ من المغول .. أبيض كاللبن الحليب .. أشقر كحريم السلطان ، له ابتسامة خلابة .. اذا ابتسم اشرق وجهة وظهرت أسنانه اللامعة المتساوية.. قسوته توازى روعة هيئته .. الرجل الجميل ، كان يعامل صديقى بهدوء ولين يدلان على ثقة بالنفس .. كمن اعتاد أن يعلن عن كريم حلاقة الذقن. أو عن معجون أسنان يجعلها أكثر صلابة ورونقا .. رقة تدفع بعض السيدات الجميلات على أن يقدمن له شفاهن مجانا ..
" أنت تتغزل فيمن أطار لك سقف رأسك .."
* نعم كان جميلا .. وهادئا ولا يني يبتسم .. وحتى وهو يأمر بزيادة جرعات التعذيب .. شرطتين لاغير .. لكن غرام الرجل الجميل بالتعذيب يجعله يضيف شرطتين لا غير.. ولا يقف عند هذه المرحلة .. فهو كل مرة يزيدها شرطة - ثم يسأل نفسه لماذا لا أزيدها شرطة أخرى .."
* حتى فقد صديقى سقف رأسه .. وصارت رأسه مفتوحة كبالوعة بدون غطاء .. مفتوحة منها الى السماء بدون وسيط
" - لم يكن ذلك بسبب البطالة ؟
- لا .. لم يكن ذلك بسبب البطالة .. ولكنه أثر من آثارها العديدة."
* كان ذلك من أجل ليلة العرس المؤجلة. والعريس الذى لم يجمع مصاريف الزواج .. كلما جمع مالا يتبخر "(أرجو أن لايكون غلاء المعيشة هو السبب فهذا يفسد الحكاية -) قلت

هذا لنفسى وواصلت الإستماع كما واصل هو الحديث .. اذ لم يعد قادرا على إلتزام الصمت المطبق

* كان صديقى لدواعى إزالة سقف رأسه - مع مواصلته إستخدام السيارات العامة - يغطى سقف رأسه بالصحيفة اليومية - دأب على شراء الصحيفة اليومية - ذات العناوين المثيرة - التى يعرف ما فيها بوسائل شتى، ليس لقراءتها ، ولكن لاستخدامها كغطاء للرأس. عندما يكون جالسا على مقعد فى الأتوبيس المزدحم .. والصحيفة نصفها متاح لمن يقف، يمكن أن يقرأ الواقف نصف العناوين ، ونصف التفاصيل ، قد يتجرأ أحد القراء الأعزاء ويرجوه أن يقلب الصفحة حتى يستكمل الموضوع الخطير الذى ألم به - لم يكن هذا يضايق صديقى - فهو يعرف كم يكون شعبنا الفقير طيبا وأهبل. فيضطر أن يقص على السائل ما لم يستطع الإلمام به - فالحكاية معروفة سلفاً .. اذا كانت عن الحكومة فهى معرضة للإقالة من الملوك والرؤساء الدائمين .. واذا كانت عن اسرائيل .. فإسرائيل مسنودة بأقوى قوة فى العالم .. لكن القارئ الطيارى - قد يعقب - طيب ما أمريكا تخلت عن شاه ايران لما سقط؟ وكنا نظن أنه عميل قراري أكثر من ..

صديقى يضطرأن ينزل فى محطة لا يقصدها ..

وحتى يتجنب اندفاع من لم تطر سقوف رؤوسهم وإلقاء بالرجل الجميل، قاسى القلب ، والذى يتلذذ بتطيير أسقف الأدمغة. صديقى دفع نصف ما يدخره فى سيارة قديمة مستعملة تعفيه من أسئلة القراء الطيارى .. كما تعفيه من إلقاء الحكايات التى إختصرها الإختصار المفيد.

(مشكلة فلسطين .. أعادت ولادتها الانتفاضية. بعد أن بدأ العالم فى نسيانها - الأطفال قذفوا الاحتلال النازى بالحجارة.. رد عليهم بالرصاص المطاطى .الأطفال كبروا وصاروا شبابا .. قام النازى برفع المطاط عن الرصاص

،الشباب صاروا رجالا بصورة مدهشة .. قنـــابل متحركــة فضربهم النازى،ضربهم بالطــائرات إف ١٦ والمروحيــات الأباتش والدبابات .. القنابل البشرية صــارت تنفجــر فــى النازيين لذا اضطر العالم أن يتحرك لإنقــاذ النــازيين مــن الفناء .. بعد أن ثبت لهم أن أطفـــال الحجــارة يتطــورون بصورة مذهلة ، والحجر .. صار يسقط الطائرات .. ويدمر أحدث الدبابات .. الامريكية .."

* صديقى صاحب الرأس الذى بدون سقف – كـــان أكثرنــا تفاؤلا .. حتى اعتقدت أنه يحول سخرية الناس منه، ومـــن سيارته القديمة إلى ذلك التفاؤل الوردى ، نكايــــة فينـــا .. ونكاية فى الرجل الجيل السادى الذى يعذبه وهو يبتسم.

* صديقى اذا ما جلس أمام عجلة قيـــادة ســيارته القديمة يفشل فى تشغيل موتورها ، يحاول ، ويحاول ، فــلا يدور .. لا يغضب – يدعونـــا أن نزقـــه علـــى إعتبــار أن "البوجيهات" نائمة.

* نقوم بعملية الزق .. ويحاول تشغيلها .. نزقه ويحاول .. حتى يصل إلى مكان عمله .. يشد فرامل اليد ، ويشكر مـــن زقوه وأوصلوه إلى مكان عملـــه ..يمنحنـــا ورق المنـــاديل المعطر لنجفف به عرقنا. ويلقى علينا حكايته التـــى صـــار التكرار فيها يزيدها بهاءاً وعمقا .. ويدخل إلى مكان عمله هادئا .. منتظم الأنفاس .. بدون نقطة عرق واحـــدة علـــى جبينه، كالعادة مبتسم ومتفائل – بأن الانتفاضة تتطور إلى دولة ذات سيادة .. وبانه أثناء العودة ، سيجد مـــن يعينـــه على زق سيارته القديمـــــة بالســـواعد،حتـــى يعـــود إلـــى منزله..آمنا ..

ركوب البحر مساءً

انقشعت التهاويم السابحة فى تلافيف عقله، حينما اندفعـــت الحرارة .. لهبا من أمعائه إلى رأسه ..
ومن فتحة خلف الرأس .. تسربت كثير من الأفكـــار التـــى كانت تضغت عليه بيد قوية ليظل ثابتاً فى مكانه ..
لعله الآن يحاول أن يكون متماسكاً .. ولكن اليد التى تبقيه فى مكانه ثابتاً لها أظافر تخربش فى جدران أمعائه.. ليجـــد نفسه فى حالة من الجزل، يجد صعوبة فى ضبط قدميه على الخط المستقيم الممتد بينه وبين الشخصية المهمة فى ذلـــك الحفل ..

*رجال الأعمال لا ينعمـــــون بحيـــاتهم كمـــا يظـــن الفقراء.. حياتهم أعمال فى أعمال .. حفلاتهـــــم أعمـــال .. وغرامياتهم أعمال .. أنهم لا يعملون جزءا من اليــــوم ثـــم يريحون أدمغتهم مثلنا – فلماذا ننظر اليهم بحسد ؟!
*أحيانا أخاطب نفسى .. وفى كثير من الأحـــايين لا أتلقـــى ردا..

* * *

دخان منحبس يتجمع للغليان – لابد وأن يجد لنفســـه شـــقاً ولو يسيراً ليفلت منه وإلا .. انتفخت كبالون .. وارتفعت فى سقف القاعة ذات الأعمدة، والسقف المرتفع للفندق الفخـــم والتصقت بالسقف ..

* هذه القاعة ذات الأعمدة والسقف المرتفع المزخـــرف .. هل كانوا يبنونها كمعبد . ثم حولوها كجزء من المكان الذى يستعرضون فيه ثرائهم؟!

*وحالات العرض .. تزخر بألوان مما يخلب اللب .. بعضها يتحول إلى إعجاب .. فنذكر اسم (الله) حتى لــو طلبنــا أن يعطينا الله مما أعطاهم، ففى ذكره .. ثواب ..!

*الآن عليك أن تهدأ، ولا تسلم ذهنك لحركة الحصـــى فـــى العلبة الصفيح الفارغة، والتى يهزها طفل مصاب بالبله..

*انت لا تشرب كثيراً .. لماذا ورطت نفســك، كــان عليك أن تتعفف .. يصبون لك كأسا فتتذوقه برشفه خفيفه.. ثم تتركه أمامك .. ما دام متلئ فلن يصبون لــك غــيره .. ولكنك انطلقت كلما صبوا شربت .. إنها ليست مياه غازيـــة يا سيد!

*أقصى ما كنت تعاقره .. زجاجة بيرة .. تحكى وتتحـــاكى عن اللقاء بها .. لا تكثر من الطعام حتى لا تنقلب أمعـــاءك وتبدو بين الحضور .. لصيق فئتك وموقعك ولا أمـــل فـــى تحريكك قليلاً إلى أعلى ..!

*أرشف.. رشفة رشفة.: هاهم عـــادوايتضـــاحكون اضحك بإبتسامة مغلقة الشفتين.. لا تفتح فمك وتقهقة، فأنت لا تجلس على المقهى البلدى. لا يمكن أن تسيطر على نفسك إذا إنطلقت. وهذه الأظافر الخشبية تخربش فى جدار معدتك الملتهبة.. ابتسم على أساس أنك فهمت الموضوع. ووصلت اليك الطرفة التى قيلت ..

وراقب ذلك الشخص الذى يبدو هو النجم الأوحـــد فـــالذين حوله يلعبون دور الأقمار.. تراه قد شرب ضعف ما شربت.. لا يكف عن تناول الطعام -بطرف الشوكة يعلق بها القطـــع من الأطباق.. فلا هو فقد رأسه مثلك ولا هو مهدد بارجـــاع ما فى جوفه. ها هو نموذج للشخصيات الاجتماعية البارزة، التى تجمع المال والنفوذ والنجومية..

لابد وأن تكون تلك الشخصيات فى حجم هذا الرجل.. نصف رأسه الأمامى، أصلع تنعكس عليها الأضواء.. وله عينـــان واسعتان لامعتان وقحتان.. وله شارب كثيف، ولكنه مشذب، وله أنياب يخفيها بداخل فمه الواسع، وله لغد صغير يجعـل وجهه المستطيل.. مستطيل بعض الوقت، ومســتدير طـول الوقت. وله صوت جهورى، خشن وناعم فى وقت واحـــد.. وعلى ظهر كفيه شعر كثيف.

"هل كان سيخلق غوريللا؟ وتحول إلى جنس البنى آدمين فى آخر لحظة.؟

*وحوله أربعة جاءوا بزوجاتهم.. وتركوهن لأربعة جـــاءوا بعشيقاتهم.. أما "هانى بيه" الذى أصر أن يدعوك.. فقد أتى بك معه.. وكأنك زوجته أو عشيقته.. لا هو الذى..

*هانى بيه جلس تحت مرفق (النجم) الـــذى صـــارت بيـده مقاليد الأمور.. ومقود الصفقات.. يعطى تأشـــيره المـــرور للمختارين لإمكان ولوجهم من النفق الضيق.. إلى الردهـــة الواسعة المتلألأة بالأضواء..

*هانى بيه يربض تحت مرفق الغوريللا.. يكاد يلتصق بكتفه إعتنى بوجهه أكثر من عناية بعض الزوجات بوجوههــــن.. يمسد على شعر رأسه بأصابعه الناعمــــة فـــى دلال ليـس للرجال– وأنت من بين الوجوه التى حولـــك لا تســطيع أن تحول بصرك بعيدا..

تراه دائما فوق مكتبه الكبير الفخم وخلفه المسند العـــالى.. يرتفع ضعف رأسه.. وسطح المكتب الزجاجى تحته الجـــوخ الأخضر فى الحجرة القطيفة ذات الأضواء غير المباشــــرة. على سطح المكتب الأقلام المشرعة. والطقم الألبستر.. مـــع طقم الجلد المبرقش بنفـــس ألـــوان الألبســـتر.. وأجهـــزة الاتصال.. زحام فوق المكتب الذى – إذا ما عمل صاحبـــه– سيوقع عدة توقيعات، وقد يكتب جملة أو اثنتين.

* وعلى مسافة بعيدة.. أطول من المسافة بين القاهرة.. وإبشاى بحيرة.. تجلس أنت مديرا لمكتبه.. يستشيرك وينفذ كل ما يرتئيه.. تعلن الموافقات، وتدفع بها قبل أن ينهى كلامه.. تمتدح كل شئ يقوم به.. حتى شذوذه المقيت.. الذى كشفه لك تدريجيا.. إذ يرتدى ملابس السيدات، ويصبغ وجهه بالأصباغ ويضع على رأسه باروكه شعر مستعار، ويستقبلك على أنه.. شقيقته (أمل) وتعاملت أنت مع (أمل) التى احاطتك بالرعاية.. وسكبت عليك دفقات من العطف.. وكأنه يدفع بك للزواج منها..!

ومع تعدد المواقف التى تتم بين شخص يأتى من تحت متوترا.. مترددا.. وشخص ينزل اليك من فوق.. المرأة "المزيفة" تقص عليك تجربتها الحزينة. كيف عركت أحداث الزواج الفاشل، [illegible] تقص عليك قصصا.. وتتمسح بك.. فتحنو عليها وتقبلها.. والحياء يمنعها فى آخر لحظة أن تتورط.. تفيق وتتلبس "الأخلاق". وتدفع بك إلى خارج الفيللا قبل أن يأتى شقيقها. ولىّ نعمتك الذى كان.. يلعب بك.. حتى ضعف وسلم لك.. فإذا بالشعر المستعار يسقط.. والمشد على الصدر ينزع.. وتلك الملابس الحريمى تلقى بعيدا.. وتجد نفسك أمام هانى بيه وجهه لوجه.. وينزل بك من رومانسية الحب المتوتر، إلى واقعية الفعل البشع..

يتعلق بك إذ تدفعه برفق وتريد أن تغادر الفيللا.. يبكى بين يديك.. ويحكى لك حكاية غرامه بملابس البنات -التى ظلت أمه تجعله يرتديها حتى وهو غلام- أمه أرادته فتاة.. ولم ترغب فيه صبياً.. حتى سقط هانى بيه .. فى المنطقة الرخوة.. لا هو يستطيع عبورها، ولا هى تقدر على إبتلاعه. وحتى يبقيك معه، ضاعف لك الراتب. ومنحك ما تمنحه العشيقة لعشيقها.. رعاية وحدب وإحاطه.. كل ما يطلبه منك -أن لا تخذله.. أن تتحمله يوم واحد فى الشهر.. يوم واحد يكون فيه أمرأة عاشقة تنتظر حبيبها..!

وتستضيفه.. تطعمه بيديها.. وتريح رأسه على صدرهـــا..
يوم واحد يكون فيه (أمل)

*وإن كانت البداية غريبة عليك.. لكن العادة سهلت كل شئ وقد اقترنت ببعض المتع.. من طعـــام وشـــراب.. وأمـــوال تغدق.. هي مشاهد متفرقة.. بفاصل زمنـــى كبـــير أحيانـــا، يجعلك تتحمل.. وتجعلها جزء من روتين عملك.. وقد أعجب بك هانى بيه فى العمل إيما إعجاب.. وأعجبت بك (أمل) فى الفيللا.. لدرجة الجنون..!

ولكن ما كان يدهشك حقاً. أن أمل بحنانها وتأوهاتها وليونتها كقطة مدللة.. كانت تنقلب إلى حدة وقسوة غريبـــة عندما تتحول إلى هانى بيه

رجل الأعمال الذى لا يترك فرصة تفلت، ولو سلك لها باب الجريمة.. كان يسحق خصومه فى قسوة، ويغلـــق أمـــامهم المنافذ ويجبرهم على الركوع له.. حتى لو استعمل البـــارود والبلطجة.لا شئ يستعصى عليه.

ماذا أصابك.. ما هذه المشاعر التى تعصـــف بـــك.. أتغير على (أمل) من رجل موكل إليه باب الفـــرص يشـــبه الغوريلا.. أم أنك تحسد هانى بيه على إمكانياته فـــى فتـــح الطرق الموصدة..؟!

لماذا تشتعل النار فـــى جوفـــك.. أهـــى الخمـــر، أم ذلـــك الإضطراب إذ تبينت -كما العشاق- نظرات إعجاب الآخـــر، فتخشى أن تنهار آمالك.. قبل أن يتحقـــق لـــك مـــا تصبـــو إليه..؟!

أهى الخبرة التى تجعلك تحس بـــأن رجـــل الفـــرص يبتهج اذا ما إلتصق به صاحبك.. أو إذا مـــا وضـــع يـــده الطرية فوق شعر يد الرجل الغوريلا. لعل (أمل) قد أنزلقـــت الى خشونة الرجل الغوريلا تتمناه لنفسها.

*و اذا ما أمسكت الشوكه..أسقطها.. الأتكيت، يطلب منك ألا تستخدمها ثانية..لكن اذا ما نظرت تحت المائده فهذا

حقك..يا لك من سافل يا هاني بيه.. و أنت يا رجل الفرص.. ألا تستحيان ..(أمل) تضع ساقها على ساقك و يدها على وركك.. و حولك نساء متبرجات كزوجات مغريات للعزاب.. و عشيقات مغريات للأزواج..!

*ما الذى تختلسانه تحت سطح المائدة؟ ما الذى تريده هانى بيه من الغوريلا..؟ أم أن أمل جاءت فى صورتك.. خيل لك أن الغوريلا يختبئ خلف أكوام من الأصباغ وملابس الدانتيلا.. ستظل الغوريلا بالشعر الذى يغطى ظهرها.. هى الغوريلا..

• "وخطر لك خاطر" -عندما يأتى ذلك الخاطر للسكارى يكون السكران قد قطع نصف الطريق فى تنفيذه- أن تربط رباط الحذائين .. كانا أسودين لامعين يجمعان بين رقة الذوق ومتانة الجلد الطبيعى ... وخال لك أن هذين الحذائين سحقا معاً كثيراً من الطامعين .. الآن يكون عليك أن تتأمل الحذائين .. حذاء الغوريلا .. وحذاء تلك الحية الرقطاء التى لا يمكن تحديد نوعها .. أنثى أم ذكر . وبقايا ضحكة جذلة تشق طريقها فى صدرك فتطويها، ومع انك راقبتهما طويلاً تحت الترابيزة، إلا أنك أفقت على "المستحيل" فالترابيزة عريضة. والزحام حولها كثير، والذين يلاحظونك كثيرات .. وبعضهن يعتقدن أنك من الذين ستفتح لهن طاقة القدر مع سيدك.. فى مرحلة الإنتقال.لتدفع بهن إلى الطبقة الجديدة. لذا يحيطنك بالابتسامة المرسلة كالفخاخ.

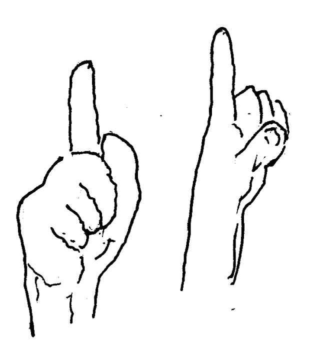
ومع أنك ظللت جامدا .. تعصف بك مشاعر الغيرة التى اندلعت بداخلك منذ تحول هانى بيه .. إلى أمل هانم، ملتصقا بالغوريلا .. ستكون مثل الكثيرين .. فى امكانك أن تتحدث مع من يجاور ك .. على اليمين أو على اليسار .. وتستمع إلى ما يقولانه .. وإذا ما قام الغوريلا للإنصراف، قام هانى بيك وكأنه جزء منه ..

*وإذا ما خطى الغوريللا خطوة تعثرا سويا .. وسقطا معــا. اكتم ضحكتك وبادر مسرعا .. بمساعدتهما .. ستجدهما قــد جلسا .. يفكان الربطة المحكمة للأحذية .. الأحذية اللامعــة التى .. تسحق .. من يقف فى طريقها ..

*وإذا ما احتضنت الغوريللا .. لتســاعده علــى أن يقوم .. كان يتعلق برقبتك ويموء كقطة أليفة .. وكانت "أمل هانم" تنظر اليك من خلال قسوة شقيقها هانى – الذى يهددك فى وظيفتك والحرمان من كل ما يغدقه عليك..

• ابتعد سريعا .. وعاون هانى بيه على الوقوف .. وعندمــا رآك أنك مازلت له، قال بصوت ناعم مثير:

– مرسيه خالص يا حبيبى.



.. نعمة لما كانت تتجــول فــى الحديقــة الخلفيــة لفيلــلا المستشار.. كانت تجرى وتتوقف.. وتستدير حول نفســها.. وفى نزق الشباب تميل على حوض الزهور -الــذى يرعــاه المستشار شخصيا- تداعب الزهرات التى تفتحت.. وتركــع لتقبل أوراقها وتتلامس أوراق الزهرة مع شفتيها.. تتلــذذ بنعومتها وأريجها.. وهى فى حالتها هذه تنســي نفســها.. وتخاطب روحها فى حوار متصل.. يعلو ويهبــط.. يحتــدم ويهدأ..

* نعمة اكتسبت تلك العادة من وحدتهــا.. حــاولت كثــيرا التخلى عنها.. ولكنها لم تفلح.. وخاصة عندما تكرر ضبطها متلبسة بالحديث مع نفسها- ويقف من يضبطهــا يتفــرس فيها متلفتا حولها، مفتشا عمن تحاوره.. ونعمة عندما كانت تضبط، كانت تقلب الحوار إلى غناء ، أو غمغمة موســيقية شائعة.

حتى لايقولون أن البنت أصابها الخبل.. وتكلم روحها..!

* عندما كانت نعمة صغيرة.. كانت الهانم الكبيرة - تقــول عنها "لازالت عيله" لكن بعد أن كبرت نعمة فى خدمة عائلة المستشار.. الذى أصبح قاضيا كبيراً.. كانت سيدتها تنهرها وتقول لها بأسلوب لا يجرح:

- ماذا جرى لك يا نعمة.. أنت إتهبلتى ؟! عمالــه تكلمــى نفسك.. وتتعاركى مع روحك !

*والست الكبيرة كانت تقدر ظروف نعمة التى تيتمت وهـــى فى الثامنة، وخالتها التى كانت تخدم فى منازل الكبار وتقوم بتنظيف عدة بيوت فى مواعيد محددة من كل أسبوع- هـــى التى أتت بها إلى بيت المستشـــار-وكلمـــت عنهـــا زوجـــة المستشار- التى كانت من الطبقة الوسطى "الجزء الكريـــم منها." وخالتها أم إسماعيل ليست شقيقة لأمها.. ولكنها من أقرباء أمها.. وكانت تأتى وتسأل عـــن نعمـــة.. وتبـــاعدت مواعيد زياراتها بمرور الوقت.. خاصة عندما كـــبر أولاد أم إسماعيل وربنا فتح على زوجها بدكان الكواء، وعمل معـــه إبنه إسماعيل..

* لكن نعمة.. لم تنس خالتها أم إسماعيل.. لأن نعمة لم يكن لها من أهل سوى هذه السيدة.. فكانت اذا ما تاقت للأهـــل، خاصة فى المناسبات والأعياد.. كانت تطلب من الهانم إذنـــا بزيارة خالتها فى العصافرة.. وهى تقول لروحها "يا بنت يا نعمة.. هل أنت بحق تريدين زيـــارة خـــالتك أم إســـماعيل؟ خالتك التى لا تسأل عنك.. وأنت لاتشـــعرين نحوهـــا بـــأى مشاعر تشدك إليهـــا.. ولكنـــك تجديـــن نفســـك مشـــدودة لزيارتهم- الواحدة تكون زهقانة من الذى تبات فيه وتصبح عليه.. على الأقل تغيير يكتنف حياتك.. تجدى نفســـك فـــى وسط عائلة.. فيها إسماعيل الذى يهتم بك إهتماما خاصاً.."

* وكانت الهانم الكبيرة لا تعترض فى أن تذهب نعمة لزيارة بيت خالتها فى العصافرة.. يوما بليلة وتعود.. ثم صـــارت نعمة تصر على أن تقضى عندهم ســـحابة النهـــار بطولـــه وتعود فى المساء، لكن فى هذه الأيام كانت الهـــانم تنظـــر إليها طويلا.. تتأمل جسمها الذى خرطه خراط البنات علـــى سن الثامنة عشر، وتتعلل الهانم بحجج فارغة لتثنيها عـــن رغبتها..!

- أنت عارفة يا نعمة أنا لاأستغنى عنك ؟

أو تقول لها- عندك اليوم شغل كثير، أجلى الزيارة إلى وقت آخر..
لكن حقيقة الأسباب، كانت تدركها نعمة، عندما تقول لها الهانم -والله كبرت واتدورت يا نعمة وبقيتى شابة حلوة
-نعمة تقول فى نفسها- أنا ايضاً شايفة كل هذا فى عيون سيدى مجدى، لما يحضر زيارة من الكلية الحربية.. ولما يكون معه أصحابه لابسين بدلات الكلية الحربية.. أدخل عليهم يتجمدوا.. يكفوا عن الهزر.. ويعاملونى كأنى أخته مريم.. ولما أقف قدام سيدى المستشار- يفضل يبص إلى ويضحك ويقول:
-أنا شايف أن نهايتك قربت يا بنت يا نعمة
أقول له: يا خبر يا سعادة البيه
يرد ويقول: لاتنخضى.. أنا قصدى إنك قربت تتخرجى من البيت لما يحضر ابن الحلال يدق بابى ويسألنى - إن كانت البنت الأمورة تتعطف وتتكرم وتتزوج منى- ساعتها سأقول له- تقصد البنت نعمة التى كانت مفعوصة.. ضرورى تقصدها.. لأن مريم لازالت صغيرة على الزواج..
* وإذا ما أدارت نعمة هذا الحوار فى ذهنها، تضحك وتشعر بكلام المستشار الذى كانت دائما تتخيل أن والدها كان فى صورته، وله نفس نبرات صوته وحنيته. هو دائما كان يشعرها بالأمان. يعاملها على أنها ابنته.. حتى إذا زجرها.. كان فى زجره لها حنونا.. وكان يقول لها: شوفى يا نعمة لكل إنسان عمل معين إذا أتقنه.. يبقى إنسان تمام.. والناس كلها ستعامله فى منتهى الإحترام. الذهب يا نعمة يحتاج للنخالة. هذا لايعني أنك نخالة يا نعمة.. أم أن لك رأى آخر يا بنت يا نخالة؟
ويضحك فتضحك.. والهانم تقول له: دلعها.. يا أستاذ وأفسدها كما أفسدت "مريم"

ونعمة كانت تعرف طبيعة المستشار.. فمن يره يعتقد أنـــه غاضب لأنه دائما عابس الوجه. وهـــو طويـل وعريـض وأصلع.. على رأسه أجمل صلعة رأتها فى حياتها.. ولعـــل عمله المتجهم يجعله يفك عن نفســـه بـــالهزل والضحـــك.. والهانم تقول:

- ضرورى يفرج عن نفسه.. أصله فى المحكمة لازم يكـــون جاد الملامح وكشر!

* ونعمة تعرف أنها كبرت وصارت إلى حد كبير جميلـــة.. وأم إسماعيل قالت لها:

- أنت يا نعمة طالعه لأمك الله يرحمها.. حلوة..

وأسلوب الهانم معها، وطول المعاشرة مـــع تلـك الأســرة الطيبة أضفى الكثير على جمال نعمة.. كما أن الزمن الـــذى كان ملكيا وطبقيا -لحسن حظها- كان قد ذهب وحل محلـــه زمن رئاسى جمهورى، مما جعل المعاملة لفئة الخدم تنحـــى منحى أكثر إنسانية•ونعمة التى تركت المدرســـة الإبتدائيـــة وهى بالصف الرابع.. أمكن لها أن تقرأ المجلات والصحف التى على المناضد.. وإن كانت تكتب بصعوبة.. والتليفزيون كان مدرستها الذى تعلمت منه ما كان يمكن أن يكون خافيا عليها.. وأمكن لها بناء شخصيتها بدون عقد كبيرة.. حتـــى عندما تمر ببعـــض الضغـــوط العصبيـــة مـــن الهـــانم. أو المستشار، وأحيانا دلع مجدى.. وعناد مريم.. أو بعض من أقاربهم الثقلاء، فقد كانت تنحنى قليلا لتتجنـــب العاصفـــة- ولاتنسى من ربوها وأفضـــالهم عليهـــا. بـــدون الشـــعور بالدونية.. وكل أحلام نعمة أنحصرت فى أن تظل لآخر العمر فى كنف هذه الأسرة الطيبة.. أهلها الذى عوضها الله بهم..

*والهانم.. صارت تخشى عليها من الخروج وحدها وزيارة خالتها أم إسماعيل وتختلق لها الأعذار.. كان ذلـــك يســـعد نعمة إلى حد ما. "لو كانت أمى كانت تعمل أكثر من ذلـــك".

ولما كانت نعمة تلح على زيارة خالتها أم إسماعيل تقول لها الهانم:
- يا نعمة أنت كبرت ولازم تخافى علـــى نفســك.. خــالتك عندها أولاد كبار، وكلهم ساكنين فى بيت صغير.. وإسماعيل صار رجلاً.. وأخواته فى سن المراهقة.. لو أصريت علـــى زيارتهم تقعدى ساعة زمن، وتقومى على طــول.. لاداعــى للمبيت عندهم وأجعلى لنفسك قيمة..!
*ومن خوف الهانم عليها، كانت تأخذها فى السيارة معهـــا من الفيللا فى "اسبورتنج" إلـــى العصـــافرة قبلـــى الســكة الحديد.. ولأجل خاطر نعمة تقوم الهانم بزيارة خاطفة لأختها فى "ميامى".
وقدام البيت تركن الهانم السيارة وتنزل نعمة، ولا تغـــادر الهانم المكان إلا إذا أطلت أم إسماعيل.. وأخذت ترحب بها.. تقول لها الهانم:
- ساعة زمن يا نعمة.. إذا سمعت الكلاكس تطلعى..
*وتعود الهانم اليها بعد ساعة، أو أكثر قليلاً.. تطلق نفـــير السيارة، وتخرج إليها نعمة.. التى تكون فى صورة تختلف عن التى جاءت بها،تسألها الهانم وهى تقود:
- كيف الحال يا نعمة ؟
نعمة ترد من تحت الضرس: الحمد لله..
ولكنها لاتقول حقيقة مشـــاعرها. وكيـــف أن أم إســـماعيل قابلتها بفتور.. خاصة إذا تصادف ووجدت إســـماعيل فـــى البيت، وراح يرحب بها.. كانت خالتها أم إسماعيل تحمرق.. وتتدخل، وتخلق لإسماعيل عدة مشاوير -ضرورى- يقـــوم بهم فى هذه اللحظة بـــالذات، وإلا الدنيـــا انهـــارت علـــى دماغها.. ونعمة لم تكن عبيطة، حتى تفهـــم أن خالتهـــا أم إسماعيل تحاول منع -كارثة- إذ تنفرد بها وتقول لها فـــى تبجح: إسماعيل حاطط عينه منك لكن أبـــوه رأســـه وألـــف سيف يجوزه بنت عمته.. نوال.. بنت متعلمة وعندها دبلوم

تجارة.. ووظيفة فى محل وبتقبض راتبا آخـــر كــل شـــهر
-خالتها اللئيمة- تقول لها: أنا قلت لأبو إسماعيل "ما بهـــا
نعمة.. حلوة.. ومتربية فى بيت المستشار" لكن لمؤاخذة يا
بنتى.. كل واحد وعقليته.. يقول لـــى: طلعـت أو نزلـت..
خدامه..! "

وتمصمص خالتها أم إسماعيل شفتها وتقول: أخص عليك يا
أبو إسماعيل أصله يا بنتى.. مدب.. ويطس الكـــلام كـــدة..
بعدها قال أنا لا أقصد نعمة.. أنا أقصد.. وسكت.. أصل أمك
يا حبيبتى كانت غندورة وحلوة.. وإتجـــوزت أبوكـــى عـــن
حب.. خالفت أهلها وهربت معه.. والناس سكينتهم حامية..
لاينسوا ما حدث

•الهانم تلاحظ أن نعمة صامتة وجامدة الملامح علـــى غـــير
العادة.. لو كانت نعمة وحدها فى الفيلـــــلا.. كـــانت كلمـــت
روحها بصوت مسموع..

– ما بك يا نعمة.. ضاربة بوز.. هل أحد هناك أغضبك؟

نعمة تلتفت إلى الهانم وتقول لها فى حدة:

– على فكرة يا ست هانم.. أم إسماعيل.. ليســت خـــالتى..
يعنى هى ليست أختا لأمى.. يا دوبك قريبة أمى من بعيد..

*الست الهانم تقول لنعمة بعد أن تبتسم قليلاً:

– أعرف ذلك يا نعمة..

تسألها نعمة: تعرفى من زمن يا ستى ؟

– أعرف.. ولكن لم أحب أن أحرمك من زيارة أقاربك

– هذه آخر مرة أزورهم.. هم أقاربى من بعيد !

ولم تعلق الست هانم.. وظلت صامته، تهتم بقيادة السيارة..
ثم انفجرت نعمة غاضبة:

– خائفة على ابنها إسماعيل منى.. إسماعيل يشتغل مكوجياً
والناس كلها بتكوى هدومها فى البيوت.. يارب كـــل واحـــد
يشترى مكوة بالكهرباء.. وما يلاقى ياكل لاهو ولا أهله.قال
أيه.. أبو إسماعيل رأسه وألف سيف.. مالى أنا ومال أبـــو

إسماعيل وكلامه الحجارة.. ماذا يعنى دبلوم تجارة؟ نـــوال تشتغل فى محل وربما تتعب أكثر منى–سيدى المستشار قال أن كل الأعمال محترمة مادام بنعملها بإخلاص– والده يبحث له عن موظفة.. لا خادمه.. أنا لم أشعر يوما إنـــى خادمـــة عندكم يا ست هانم. شعرت دائما أنكم أسرتى..

*وهدأت الست من روعها، بقدر ما تستطيع.. وأنعكست هذه الأزمة على نعمة.. وجوما متصلا.. وأستغراقاً فى العمـــل. وأهمالا فى ملبسها وزينتها.. فبدت أنها خادمة فى المنزل. لاحظ ذلك السيد المستشار قال لها:

– ما بك يا نعمة. وجهك أصفر وحالتك مدهولة.. أنت بقيتى نخالة حقيقى.. فين الدهب؟!

والتفت إلى الهانم وقال لها:

– أين ذهبت نعمة الحلوة..

وتركته نعمة مع الست هانم. ولجأت إلى المطبـــخ. مكانهـــا الذى صار مفضلا.. والقاضى صار يفكر ويتحاور مع الهانم ليصل إلى حكم فى هذه القضية، قال لزوجته:

– إسمعى يا إعتماد.. أنا أهتديت إلى حل لهذه القضية. نعمة تشتغل عند أختك فى البوتيك.. يعنى تصير موظفـــة، ولمـــا تخلص الشغل تعود إلى هنا.. بيتها.. وإستحملى أنت قليلا.. حتى نخرجها من أزمتها.. وفلوس الوظيفة علـــى فلوســـها عندنا.. تشيلهم فى البنك، يعملوا فوائد.. حتى يـــأتى ابـــن "الحرام" الذى يلهفها ويلهفهم..

* * * * * * * * * * * * *

*بعد أن عملت نعمة فى المعرض لعدة شـــهور.. حضـــرت خالتها أم إسماعيل بصحبـــة زوجهـــا المـــدب– ويتقدمهـــم إسماعيل فى حلـــــة رصاصيـــة مكويـــة جيـــداً.. وقـــابلوا المستشار..

*قالت أم إسماعيل للمستشار: إبنة أختى يا سعادة البيه

*وقال أبو إسماعيل: جحا أولى بلحم ثوره يا سعادة البيه

*وكان إسماعيل يفرك يديه فى شئ من الرجاء..
*ابتسم المستشار بثقة وهو ينظر إلى زوجتــــه نظــرة ذات معنى"تفسر لها شيئاً فى مجتمعنا الشرقى.!. وأتكأ ورفع ذقنه إلى أعلى قليلا وقال: أنا شخصيا ليس لــدى مــانع.. لكــن أعطونا بعض الوقت لنسأل عنكم. كمـــا أن رأى العــروس ضرورى جدا فى هذه المسألة.



.. عن فتحى الشرقاوى الذى إجتاز الأربعين حولا - بالطول والعرض - يوم أن عزم على الرحيل عن التراب الزعفران.. مرغما.. فامتلأت نفسه بالرهبة والخوف. وقد خال نفسه وحيداً سيواجه تياراً خارجياً صقيعياً، إذا ما اكتنفته الغربة وألم به الفراق.

كان قد أمال جذعه ليدع للريح القويةطريقها. وحتى لا تطيح برأسه الذى بقى به جزء من عقل، يبصم على الواقع.. ومعظمه طار مع خيالات وأمانى مجنحة.

وعلى النقيض - فى الغالب على النقيض - انبعث بداخل فتحى الشرقاوى صهد العزم والإصرار فمضى يلملم جذوره الضارية فى حوارى المدينة وأزقتها. مقاهيها. ميادينها. معالمها.. نزعها جذراً.. جذراً،فتداعت بداخله طبقات قديمة، تراكمت بفعل الزمن فى صعوده المعتد، وهبوطه المنكسر !

ملتصقاً ومتفاعلاً مع العادات الأسمنتية - الأصيلة منها والوافدة- إرتفعت فى مواجهته سراً،أشبه بهرم سقارى متدرج. ضرب تحته الزلزال فتهشمت مصاطبه،وتداعب أحجاره، ولم يعد يتبين أى المصاطب كانت تحت، وأى المصاطب كانت فوق !

ذلك انعكس بداخل فتحى الشرقاوى إرتباكاً ففقد بعض من تماسكه، مما أفسد الصمام الكابح ليشيع فى الأعماق ذلك القنوط اليائس.. يفضى به، جامدا فى جلسته،

خلف المكتب الكبير القديم. يجتر العمل المكرر فـــى ملـــل. بينما المطلوب منه أن يهتم بما بين يديه وكأنه أول وآخـــر الأعمال العظيمة..

فبدا أمام نفسه أنه يخاتل!

لذا فقد اعتاد أن يصحب معه حالة الملل والتكرار إلى بيته، يرنو إلى الزوجة بلا حماس.. والطفل الـــذى فـــى مرحلـــة الشقاوة واللعب يضاعف من همومه، وكأنه يرســـل إليهـا بنظرات الوداع الأخيرة. مع أن الزوجة ضاعفت من همـــة العادات المستبدة، فتجاوب معها مجاوبـــة المـــودع. يفتـت الرتابة المزعجة ويصل ما بين الإدعاء والأحاديث المبتورة -بحديث مبتور آخر. -مستخدماً- مادة لباقتـــه اللاصقـــة، يخدع بها الزملاء والأصدقاء،فيبدو متوائماً ومنبسطاً.. مادة جعلت له مكاناً محفوظاً بينهم.

والزوجة بمؤهلها المتوسط، وطولهـــا المتوســـط، وجمالها المتوسط

وأحلامها المتوسطة.. تستفيد من اللحظة الراهنة التى تم بناؤها من أجزاء متفرقة. كان مرغماً يدخـــل فيهـــا المكان والزمان والحالة والظروف.. قسراً.

تستفيد الزوجة من ذلك الزحام، فائدة قصوى. لتتوارى فـــى الظل. مكتفية بالتطلع إلى الذين سافروا وعـــادوا محمليـــن بالهدايا والدولارات فابتاعوا الشقق التمليك ورصعوا صدور وأذرع زوجاتهم بالذهب والماس.

إلا أن الزوجة -فى نفس الوقت- تتنازعها مشاعر الخوف. إذا ما تعلم الطيران، طار بعيداً. تخشـــى الانفكـــاك الذى يطوح به بعيداً عنها جسداً وعاطفة. وهى التى كـــانت تحسد نفسها عليه فصارت تحسده على نفسها.

وقد أفلحت فى إدخاله القفص المدهش،وأصابتـــه بمـــرض الالتصاق بالأوتاد، والدنيا تدور حوله، ليدوخ السبع دوخات

وإذا ما بدا عليه التعب ترتجف هلعاً من إحتمالات شـــقائها وتعاستها المرتقبة إذا ما ذهب.
لكن خلال فترة التردد المشوب بالأمل والإحبـــاط.. تقلبـت مراراً بين التشجيع على السفر، والتهوين من السفر. إلا أن صورة الشيكات التى ستترى، جعلتها تتكــئ علــى أعتــاب الغيب، وتلقى بكافة الحمول على "الرازق" ورب هنـــا، رب هناك!
.. ما تمزق كان قد تمزق. والمسافة التى قطعهـــا، نسـفت معظم الجسور خلفه. حتى لا يتبعه أحد. وهو فى الواقع كان يقصد -قطع خط الرجعة- كى لا يفكر فى العـــودة إلــى النقطة التى بدأ منها. نقطة البداية التى ضاعت فى أخـــلاط كثيرة من الوقفات المأزومة.
كان عليه أن ينسى إلتصاقــه بـــالأرض والنـــاس والعادات.. البلد.. المدينة والحى..
فمنذ أن لملم الدوافع من الداخل والخـــارج.. وشـــرع فــى إجراء الجراحة، كان قد وقع على الموافقـــة ورقـــد علـــى الطاولة، وإندفعوا به وهو مسجى على الترولى، وتسلمه طبيب التخدير، وبدأ الجراح فى إختيار مشرطه الحاد..
وفتحى الشرقاوى غير مبال بالنتائج الغامضة.. فى تـــوازن خطر البقاء وخطر الرحيل..
إختل القرار النهائى لصالح المدن الصحراوية البعيدة.
حصل على مؤهله الجامعى من كلية الآداب. لكنه لم يعمـــل فى التدريس.. وحصل على وضع يرضيـــه فـــى شـــركات الدولة. وظل فى حالة ما، بداخل الوضـــع القلـــق، وحولـــه الأسوار المعدنية، عالية، محصور بداخلها كصرصار فى كوز من الصفيح، فحفر لنفسه خندقاً، وتخندق بداخله. يتغلغل فى نفسه شعور من ينتظر حكما .. يسلم رأسه للأحـــلام التـــى تتهادى فى الوقت الرخو، بين اليقظة والمنام.

خيل له أنه مثقف وله دور يبحث عنه. ذلك أضفى على ما يقوم به من أدوارهامشية .. شيئا من البطولة المتوهمة.
مواصلا تحريك جسده .. لتهتز روحه بألق: ليس له وجود. كأحد أفراد الطبقة الوسطى الدنيا. معدوم الملامح. تعصف به الأنواء، فى قلب الزحام يشعر بالوحدة. لاهو بالقائد المقدام'ولاهو بالتابع الذكى. لفترة من شبابه كان والده "الحاج" عبد العاطى الشرقاوى. الذى استمرأ الوظيفة الحكومية بوزارة الحقانية. نظيف اليد، أوقل مقيد اليد. فلم يختبر. وصار الرجل من باب التحسر يتفاخر بيده النظيفة التى غلت عن "الحرام"
فى نواح يقترب من الندم على الفرص التى فاتت وولت تباعا ولم يعد لها وجود!
واعتبر الرجل نفسه مثالاً للرجل الشريف. استثمر أمواله ومدخراته فى "حصالة" تعليم ابنه جامعياً، ولما فاز الولد بالشهادة العالية.تنفس الحاج عبد العاطى الصعداء، وفرك يديه، وسال لعابه. استعدادا لفتح الحصالة، وإحصاء أمواله المدخرة التى لابد وأن تتضاعف!
إذ أن الابن قد حصل على الوظيفة - عندما كانت الدولة مهمومة بشعبها. بسط الحاج عبد العاطى حجر ثوبه واسعا ليستقبل فيه العائد المجزى.
وكانت المفاجأة - أن الحصالة لم يكن لها قاع، وما خطه الحاج عبد العاطى كان يخطه على سطح الماء. لكن الأب فى موقف بطولى -وهو رجل من الدقة القديمة- أمكنه أن يستوعب الأبعاد النفسية والاقتصادية - قال لابنه:
- يا فتحى .. لا تحمل همى .. انا لا أريد شيئا مما فات. لكن أرجوك أن تعفينى مما هو آت ..
ومع ذلك واصل الرجل دعم ابنه بما يمكن أن يستبعده من إحتياجاته. وأمكن أن يعاونه فى إستكمال الحصول على مسكن مناسب -كما أمكن أن يعاونه- معنوياً فى إستكمال

مشواره نحو تكوين أسرته الصغيرة. تداعبه أمنية أن يرى الحفيد

وأنفاس الحاج عبد العاطى تقطعت فى السباق. على عتبات "الزفاف" الذى إستكمله الإبن معتمداً على قلبه.

إذ أن قوته المادية كانت قد إستنفذت تماماً.. وإذا مامر عام وثلاثة شهور- دفعت الزوجة بالحفيد فى يد الجـــد،فطــوى عليه جوانحه،رافعاً عينيه إلى السماء يشــــكر اللـــه علـــى عطيته.

ومنذ خروج الأب إلى المعاش إنصرف إلى تنمية رصيـــده الأخروى- حتى يقابل وجـــه رب كريـــم، فـــى شـــئ مـــن الإطمئنان،

ولكى يعلو بقدراته على أمراض الشـــيخوخة، تقـــدم لعمـــل تطوعى يجد فيه الحركة والبركة. صار فـــى خدمـــة أحـــد المساجد الأهلية،وبه جمعية خيرية ترعى آمال الفقراء فـــى تنظيم رحلات للحج ورحلات للإعتمار بالأراضى المقدســـة. وهو الذى يستهدف الثواب من عند الله. إختلف مع الذيـــن يستهدفون الثواب -النقدى- من عبيده. وإزدادت منغصاته لتواجد عصبة من الملتحين لابســـى الجلابيـــب القصـــيرة.. ركبوا على ظهر الجمعية يريدون التوجه بها إلـــى منـــاحى دنيوية وخلافات مزعومة

وعندما بدأوا بسب الحكام والفنانين وإطلاق فتاوى التحريم. تصدى لهم أبو فتحى بالحسنى.. فأجابوه بالغضب والعنـــف وآسفاً، آثر الحاج عبد العاطى أن يلزم بيته..

وبيته هو بيت ابنه فتحى..

يصب فى أذن فتحى بالوصايا والأحاديث والآيات الهادية إلى الفضيلة والأخلاق الكريمة.. ذاكراً له مئات الفرص التى آثر الإبتعاد عنها فكسب السلام الروحى.. ومنها آخـــر فرصـــة لاحت له فى جمعية مسجد الهدى..!

* * * * * * * * * * * * * *

كان من أثر ذلك أن فتحى الشرقاوى -فى حياته الوظيفية تغافل عمداً عن كثير من الفرص التى تمرق فوق مكتبه وتتلكأ بداخل الملفات المتبادلة بينه وبين العملاء.. ففى مرحلة تصفية شركات كبرى للحكومة.. إنتعشت لدى البعض آمال واسعة فى الثراء السريع. جعلوا من أنفسهم ورثة للحكومة والشعب.

المرحلة الإنتقالية، والحراك الإجتماعى حاد، يسمح بالصعود.. بأية وسيلة.. والدولة رفعت يدها عن كثير من المناجم التى لم تستغل.. حتى بدت هذه المناجم أن لا صاحب لها، فأينعت فرص الثراء -فى يوم وليلة- مقابل تسريب معلومة عن عطاء أو عنوان منجم، أو مشاركة الأبناء من تحت معاطف الآباء فى شركات وهمية تتأسس خصيصاً من أجل الوساطة فى صفقة كبرى.. ثم تستبدل نشاطها إلى صفقة أخرى إن أمكن..!

وبينما صار الحديث عن الموظف وضمير الوظيفة، فكاهة، تقال للضحك والسخرية. نظر فتحى الشرقاوى حوله. فوجد من صعد قد صعد، ومن طار قد طار.. أما هو فقد ظل فى نفس الموقع يقبض على أدوات النظافة ويطارد الحشرات التى تتسلق حواف مكتبه. فلا يتغلب عليها بتلك الوسائل البدائية.

والجذور التى امتدت، صار لها أغصان وفروع، أينعت فى ضمير الإبن وشكلته على نسق الأب. غريب بين زملائه. والأغصان اخترقت جبهته وعينيه. واستطالت فروعها فى رأسه. كما تستطيل قرون الأيائل البرية، فصار ممسوخا وشاذا بين الذين تجملوا بأحدث أدوات العصر ووضعوا على ألسنتهم ثقافته النفعية.

وحتى ينأى فتحى الشرقاوى بنفسه بعيدا.. إنشغل بدراسات الماجيستير. يتسلى بها ويرفع رصات الكتب أمامه كسد عال

بينه وبينهم. فى قناعة بأنه يسلك الطريق الشائك.. وهو على يقين بأن ذلك الطريق سيؤدى به إلى نهاية يتمناها..
ويوم حصوله على الماجيستير.. احتفل به مع والده، وزوجته تسأله عما سيضاف إلى مرتبه من علاوات..
والمؤهل العالى. صار عند بعض الدويلات الصحراوية. "المؤهل الأولى" أنهم يطلبون لأعمالهم ما فوقه..
أخيرا جاء الفرج.. لفتحى الشرقاوى يحمل له العقد والفيزا.. ليؤكدا له بأن طريقه الشائك كان هو الطريق الصحيح..
والمال يمكن أن يأتى من عمل شريف..
وتهيأ للرحيل.. متغلبا على كل ما يمور فى نفسه من هواجس الفراق..
نزع هذه الهواجس وسكب مكانها الأمانى..

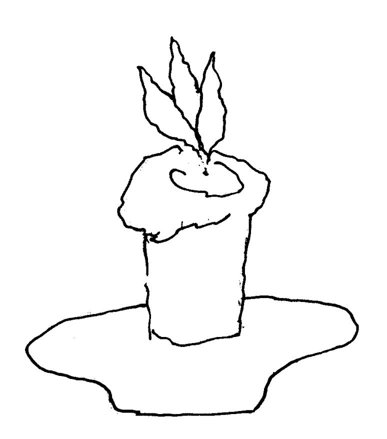
* * * * * * * * * * *

فى ليلة غاب عنها القمر.. حمل حقيبته وتوجه إلى الحافلة التى ستحمله إلى المطار..
وإذا بأحدهم يختبئ له فى كتف باب بيت مهجور.. ما كاد فتحى يقترب منه حتى انبرى له - بلحيته وجلبابه القصير- وطعنه بسكين فى صدره..
وفر القاتل.. الذى استهدف قلب الحاج عبد العاطى. الذى بدأ يقود حملة لتخليص "جمعية المسجد الخيرية منهم" أرادوا أن يخرسوه.. دون أن يقتلوه..
وفتحى الشرقاوى ينزف.. كان والده يحتضنه فى صدره ويرفع وجهه إلى السماء..
وقال له فتحى:
- أنا ليس لى أعداء يا والدى.. لماذا يبيتون سكينتهم فى أحشائى.
لكى الأب.. كان ينظر إلى السماء وعيونه تسح بالدموع
- أنهم يقتلونى أنا يا ولدى.. يقتلوننى عشرات المرات

وكان فتحى.. يستشعر بأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ومع ذلــك كان يشعر بالراحة، أنه لم يرحل بعيداً،لعل ذلك حـــدث كــى يبقى..

ووالده يضمه فى أحضانه،كان يغمغم بصوت باك :

-ستعيش يا ولدى.. وتخلصنا من أيديهم..



فتح الجلسة على تل القضايا

[عندما صارت القضايا تلالا.. بنيت
المحاكم فوق تلال القضايا..
وارتبطت المحاكم -فيما بعد- بأنشطة
المدينة الكوزموبوليتية. لذا فقد اشترط فى
تعيين الحجاب والسعاة.. إجادتهم التامة
للسباحة فى مياه الميناء الشرقية العميقة، إذ
صار للحاجب مهام جديدة. بجانب عمله فى
قاعة المحكمة.. عندما يقف فى قاعة
الجلسة ويصيح بصوته الجهورى
"محكمة.."]

"المهام الجديدة للسيد "الحاجب"

.. فوق مضلع أسمنتى، تضرب تحته مياه الميناء الشرقية وأمواجها المحصورة المتلاطمة. وقف حاجب المحكمة العجوز، المشدود البدن، العصبى النحيف، مبديا شيئا من النشاط الذى يتجاوز عمره الحقيقى، يحتضن ملابس "سعادة قاضى المحكمة" وقد توسد ذراعه الوشاح.. يعامل الملابس فى شئ من الإحترام، إذ أن هيبة القاضى يجب أن تكون واضحة وجلية، وهو داخل الملابس أو خارجها.. يقوم بتمرين اللياقة.. أو بداخل المحكة.. وهذه الهيبة تنعكس تلقائياً على حاجبه..

والمحكمة في "المشهد" تقع خلف الحاجب تماما- يمكنك أن تراها من وفوق كتفه إذا كنت تسبح في الماء مع القاضي. لذا فقد احتضن الحاجب ملابس القاضي بما فيها وشاحه الأحمر المشبوك به الصقر النحاسي. وكأنه يحتضن قاضيه في حنو، بينما القاضي كان يسبح على مبعدة خمسة أمتار من المكعبات الأسمنتية التي تصد الموج، وتقع تحت السور الحجري..

..ولأنه في هذا اليوم لا يوجد إلا قاض واحد في المياه.. والمياه عميقة.. يزيد من عمقها إنعقاد بعض السحب الرصاصية فوقها- فلم يتوغل القاضي النشيط، أنه يطفو ويغطس في لهو برئ.. لقد صار من المعتاد في الألفية الثالثة، وسيادة عالم القطب الواحد، أن يسبح القضاة في البحر قليلا قبل بدء إفتتاح الجلسات، وبداية الشقاء اليومي..
وطارت شهرة بعض القضاة.. حول مهارتهم في السباحة والغطس !!

.. وفي ذلك الوقت، كان الحاجب العجوز -من حين إلى آخر- يتناول من جيب بدلته التيل الصفراء، ساعته المعدنية المستديرة، والتي كانت تقع وسطا بين ساعة الجيب التقليدية.. وساعة الجرس التقليدية -وبالذراع الذي يخلو من حمل الملابس- كان يقربها من عينيه.. ثم يضعها على أذنه.. فيسمع دقاتها الواضحة، رغم وشيش الماء والهواء وهمهمات الجمهور الذي تجمع خلفه -عند السور- وبعدها.. ينظر الحاجب إلى جناب القاضي مبتسما ليطمئنه بأن في الوقت متسع..
-- والحاجب.. لايلتفت إلى همهمات جمهور المحكمة من المتقاضين أو المشاهدين.. ولاحتى إلى تعليقاتهم، وقد

تجمعوا على الرصيف.. وصعد بعضهم فوق السور الحجرى الغليظ.. وقد صار من المعتاد.. حدوث هذا التجمهر يوميـــاً أمام المحكمة- تجمهر يزيد عن تجمهر مشاهدة السياســيين المقبوض عليهم، الذين شرعوا فى معارضة نظام العولمة.. بالمدن الكبرى المشهورة..

.. ومع أن الذى يسبح فى ذلك الصباح. قــاض واحــد فحسب. فقد كان هذا التقليد السكندرى. قـــد بـــدأ ينـــافس مشاهدة السائحين لاستبدال الحراسة على القصور الملكيــــة فى لندن- منذ بدأ عصر الانفتاح.. وتزويق المدينة بالتماثيل واللوحات السريالية.. وتوسيع شارع الكورنيش..
وقد استنبطوا فى المدينة تقـــاليد جديـــدة.. شـــملت كافــة المجالات بالإســـكندرية.. لتســـتمر المدينـــة ســـباقة فـــى ابتكاراتها، خاصة والمدينـــة تمـــر بمرحلـــة "حكـــم رجـــال الأعمال"..

.. وصار يوم المحكمة- يبـــدأ بمشـــاهدة عمليـــات تجديد أنشطة القضاة- ومن المعلوم أن الهواية ينجذب لهـــا الإنسان أكثر من التكاليف، والعمل المنوط به ، فقد برع عدد من القضاة فى تفانين السباحة.. وربطـــت الدعايـــة بيـــن القاضى الماهر، وضرورة أن يكون سباحاً مـــاهراً أيضـــاً.
وصار الترشيح لمنصب "رئيس المحكمة" من نصيب الأكـــثر شعبية فى السباحة [فى القاهرة الأكثر شعبية فى الرماية]..
وتصدرت صورة أبوهيف-السباح العالمى- كتـــاب "تفـــانين السباحة واللهو فى تفانين التقاضى واللغو"
وقيل أن السباحة تجدد نشاط الجسم. وأن العقل السليم فـــى الجسم السليم. وأن النشـــاط ينعكـــس لصـــالح المدعـــى.. والمدعى عليه، بجانب الإستفادة العامة التى تطـــول تجـــار المدينة وبازارتها. وذلك لايستغرق وقتا طويلاً.. أنه يتم فى

ساعة أو ساعتين قبيل فتح الجلسات، وقبل شحنها بالغضب والتحدى، ذلك التحدى الغاضب الذى يعود بالفـــائدة علـــى البعض. والذى يزيد من توتـــره،فئـــة المحـــامون.. ومـــن مصلحتهم إستمرار النزاع قائما.. وتكاثر القضايا وتعقيدها. وقد صار بعضهم- يضع لنفســـه أســـعار نجـــوم الســـينما والتلفاز.. ويعلن عن مواعيده وأتعابه فى وسائل الإعـــلان المختلفة.. يحيط العملاء بتسهيلات فى الحصول على أتعابه، وأن ذلك سيتم بالتقسيط المريح، وبدون فوائد تذكر..

.. لكن من المؤسف- أن فئة كبـــيرة مـــن المحـــامين لايجيدون السباحة.. كما صار القاضى الذى يفشل فى إجادته للسباحة، سريعا ما يتحول إلى مهنة المحاماة.. على أعتبار أن المحامى.. هو القاضى الواقف. والـــذى لايشـــارك فـــى المهرجان اليومى.. الذى تحتفى بـــه المدينـــة، وزوارهـــا الأفاضل.. يومياً فى الصيف. ويوم واحـــد فـــى الأســـبوع بالشتاء،لإزدحام الرول!

"متعة مشاهدة سباحة القضاة"

" يوميا فى أيام الصيف،وموسمه تجارى بحت. يسبح القضاة فى بحر الميناء الشرقية.. وبعدها يؤدون نمرتهم فى المحكمة، ذلك فيما عدا يوم الجمعة من كل أسبوع.. والعطلات الرسمية. أما شنك الصواريخ والموكب الملوكى.. بين السلسلة وقلعة قايتباى.. فلا تعطيل لهما.. ويمكن للسائحين عرب،وأجانب- وكذلك أبناءَ المدينة، مشاهدتهما فى العطلات الرسمية" [إعلان من إعلانات المنشية] "

•• مع أن اليوم يسبح قاضياً واحـــداً.. لايقـــدم ألعابـــا خطرة- هو ذلك القاضى المشهود عنـــه بالطيبـــة والنظـــرة الموضوعية لما بين يديه من قضايا- فقـــد جـــذب جمهـــور لابأس به..
وقد صار من بنود ترقى السادة القضـــاة.. حصـــر أعـــداد جمهور المشاهدين الذين يحضرون جلساتهم، وكذلك الذيـــن يشاهدون سباحتهم وألعابهم ..
[الإحصائيات من سمات المجتمعات الرأسمالية الحديثة]
إذ أن المخططين، ربطوا معظم أنشطة المدينة بعدد الزائرين لها من العرب والأجانب، وأهمية أن يشغلوا.. أسرة الفنادق بالمدينة، فأن فى ذلك مقياس النجاح...
هذا بجانب تنشيط بازارات السياحة الداخلية..
لذلك فإن سباحة القضاة، صـــارت ترتبـــط عـــادة بافتتـــاح المحكمة، وبدء الجلسات.. كما ترتبط فى نفـــس الوقـــت.. برفع الأعلام على قلعة قايتباى المملوكيـــة، ويرافـــق ذلـــك ضرب شنك الصواريخ.. ومرور موكب "مملوكى" على هيئته القديمة، وملابسه الملونة لإثبات أن الإســـكندرانى الأصيـــل لايزال يرتدى ملابس الممـــــاليك. مـــع وجـــود الفرســـان، والجوارى الجميلات فى ملابسهن الشفيفة الملونة..
[يكثر وجود هواة التصوير.. بالفيديو.. والكاميرا العاديـــة، عند ظهور الغيد الحسان]
"القديم دائما له جاذبيته الفلكورية."
وإذا تلهى الناس بمشاهدة الموكب المملوكى الذى يبدأ مـــن "السلسلة" وينتهى عند القلعة".
فإن السادة القضاة يتمكنون من الخروج من الميـــاه، وخلـــع سراويلهم المبللة، وارتـــداء ملابســـهم بمعاونـــة الحجـــاب واحترازهم!

.. وبعض الحجاب كانوا يعملـــون -غطاســين علـــى الشواطئ- إذ تم تفضيل تعيين الحجاب الغطاسين -الأقويـــاء منهم بالذات- حتى يتمكنوا فى الوقت المناسب،من تقديم يد العون للقضاة الذين لايجيدون فن السباحة، أو تحدث لهـــم حوادث طارئة فى الميـــاه العميقـــة. إذ أن الشـــد العضلـــى "الكرامب" يأتى كثيرا لمن يكون عملهم هو الجلوس الطويل والاستماع- مع إغفاءة أحيانا- لصحف الإتهام، وصحـــف الدفوع،التى تستمر لعدة ساعات،تزيد فى توضيح الواضح.. وتعيد فيما قيل من قبل.. [مشكلة ليس لها حل] ..

.. لذا وجب تليين العضـــلات،والتســخين،والإحمـــاء للقضاة والمستشارين- قبل بدء الجلسات، وخاصة فى يـــوم المهرجان المشهود..
[تم ربط حوافز القضاة بالسباحة.. خاصة فى يوم المهرجان المشهود.. الذى يرتب زوار المدينة مواعيدهم عليه].

متعة مشاهدة خروج القاضى

من المياه عاريا

[.. وقد تمكن القاضى النشيط البديـــن نوعـــا.. وجسمه فى لون اللبن الحليب.. أن يخـــرج مـــن المياه فى محاولته الأولى- طيرت وكالات الأنبـــاء الخبر.. ليتصدر الصحف العالمية- وقد قوبـــل ذلك بالتهليل، خاصة وأن المد كان قد جعل بحـــر الميناء الشرقية.. ثائرا.. وأمواجه تتكســر علـــى المكعبات الأسمنتية بشدة..]

•• فى الأيام الخوالى. لم يكن أحد يستمتع بمشاهدة سباحة القضاة. وبعضهم شكلت جسمه قعدة "المنصة" فصار موحيا لرسامى الكاريكاتور.. ولكن فن الدعاية والإعلان. على الطريقة الأمريكية. قدم عونا شديداً لهذا المهرجان السياحى. وأمكن للمخططين أن يشكلوا ذوق الجمهور.. ليماشى عصر الإنفتاح السعيد، ومرحلة رجال الأعمال السعيدة- الذين- كما هو معروف عنهم. يستفيدون من كل شئ، ودائماً عيونهم على الربح..

•• كان البلهاء يعتقدون أن التنمية ستأتى من الصناعة والتجارة، وأن فى العمل عبادة.. وبعضهم كانت آمالهم أكبر من إمكانياتهم. فناطحوا الدول الكبرى. والتى خلقت كبرى، وستسمر عبر التاريخ. إذا ما واصلت نهب الدول الصغرى- كبرى..!

.. وأحد الزعماء الغُشم فى مصر- رغب فى أن يقفز على المرحلة الرأسمالية، وأراد أن يصل إلى المرحلة التالية عليها بقفزة يستخدم فيها الزانة. ولكنه لم يفلح. إذ أن النظام الرأسمالى العالمى، استعاد بطولته بالضربة القاضية ودون كل التوقعات للحالمين.. استأثر بمرحلته ثانية. فيما يقال أنه [مقدّر ومكتوب على الجبين، مشاهدة العولمة بالعين]

.. ولما كانت الرأسمالية الصناعية قد رسخت جذورها فى خارج البلاد.. وفيما وراء البحار. فقد قبل المخططون فى المدينة. بأن يلعبوا دور الوكلاء.. ذلك بالنظر الحصيف إلى ذواتهم، وإلى مصالحهم الخاصة.. ووجدوا "اقتصاديا" أن العين بصيرة، واليد قصيرة. فركزوا همهم فى السياحة" كما رأوا أن تكلفة "مكاتب التصدير والاستيراد"- لاتذكر، أمام تكلفة المصانع الكبرى، والمزارع الكبرى- والتى لابد وأن يتبع "انتاجها" جيش كبير.. ليفتح لها الأسواق الكبرى،

ويحافظ عليها مفتوحـــة.. بـــالحرب أو الســـلم المفـــروض بفوهات المدافع..

[عملية الرأسمالية الحقيقية مكلفة جداً]

فكانت مكاتب التصدير والإستيراد فى غاية الأناقة، ويمكـــن أن يستخدم بداخلها الديكور الخـــلاب. وأفضـــل العـــاملات وأجملهن.. وبعضهن له دراية وخـــبرة بالعلاقـــات العامـــة اللصيقة.. ومنها اللصيقة جداً..

.. [ومهما أنفق الرأسمالى على "مكتبه" الذى ســـيطلق عليه شركته- فإن ذلك مقدور عليه.. والخسائر فيه يمكـــن إحتمالها بأى صورة كانت]

كما أمكن تشكيل "ذوق عام،بالدعاية المركزة،" يجـــد فـــى سباحة القضاة قبل بدء الجلسات،مع الشنك والصواريخ التى تنطلق حول قلعة قايتباى.. شيئا مبهجاً حقاً- لكن كأى شئ عظيم،لابد وأن تصحبه بعض التفاهات، التى تفرزها النفوس الدنيئة، وتروج له العصابات التى تتفق مصالحها مع وجود الفساد- عندما تستدعى البعض لمشاهدة أجسام القضـــاة.. وكأن القضاه ليسوا بشراً،ومن حقهم الكشف عن أجسامهم.. وصار لهذه الهواية من ينظمها.. ويدعو لها ســـراً.. وهـــم يفعلون ذلك مع السائحين الأجانب والعرب، ويقدمون لهـــم الخدمات السفلية من الرقيق الأبيض..

[تراجع جسم المرأة بعد أن أباحته الفضائيـــات.. وصـــار الشواذ يبحثون عن متعة أخرى.. أكثر إثارة وأكثر دهشة- اللهم إحفظنا وسدد خطانا]

..وإحدى اعلانات العصابات العاملة فى هذا المجـــال يتكون من سؤال.. [.. هل تود أن ترى جسم القاضى الـــذى سيحكم على أحد المجرمين بالاعدام.. عاريا ..؟]

ويسارع أفراد العصابة بحجز أماكن متقدمة علــى الســور الحجرى للميناء الشرقية، يخصون به عملائهم. كما يسارع أصحاب النفوذ بإحتلال حد الموج على الشواطئ- ومنع أى مواطن من الوصول إلى البحر- إلا إذا دفع لهم المعلــوم.. فى صورة استئجار الشمسية والكراسى والمشروب المغالى جدا فى ثمنه..

..وفى ذلك اليوم.. كان القاضى الطيب البدين نوعــا والذى تصادف أن يكون جسمه كـــاللبن الحليـــب. خاصــة الأماكن المستورة التى لاترى الشمس. كان يسبح فى اتجاه المكعبات الأسمنتية التى تصد الموج. ومــع أنـــه متوســط الموهبة فى السباحة. فإن ذلك ضاعف من إثارة الجمهــور. خاصة وأن البحر كان قد ارتفع المــد فيـــه فجــأة،وثــارت أمواجه..

.. ولعل الخوف، وتشجيع الحاجب لـــه،وقــد اســتعد الحاجب بأن يلقى بنفسه فى الماء ويعاون القاضى، أدى إلى أن القاضى يشحذ قوته ويضرب الماء بذراعيه ضربات قوية تنم عن الرعب الذى أصابه.. استشعر الجمهور أن القاضى يعانى،وهو يتجه صوب المكعبات- يتحين الفرصة لـــيركب موجة يصعد بها إلى أحداها،ويتعلق بها [ذلك أثار جداً أهالى المتهمين الميئوس من براءتهم] وعندمــــا كــان الحــاجب يشجعه بأن يأتى بالمحاولة الثانية لركوب الموجـــه "تمكــن القاضى النشيط البدين نوعا،من أن يخـــرج مـــن الميــاه. ويتعلق بالمكعب الأسمنتى.

وأعتبر أنه خرج من المياه فى المحاولة الأولى..

"وطيرت وكالات الأنباء الخبر. ليتصدر الصحــف العالميــة" وقد قوبل القاضى من الجمهور بالتهليل.. خاصة وأن المــد قد جعل بحر الميناء الشرقية ثائرا.. وأمواجه تتكسر علـــى المكعبات الأسمنتية بشدة..

.. وقد اعتاد الجمهور مشاهدة محاولات الخروج من البحر الثائر بأن تفشل عدة محاولات. والجمهور يشترك بالصياح "هيبلا.. هيلا هوب"
وهو نداء موروث منذ أيام لعب كرة القدم العقيمة!!
والقاضى السمين- وجسمه فى لون اللبن الحليب- وله وجه طفولى مشدود الجلد. ورغم وجود الطحالب اللزجة وإمكان إنزلاقه.. فقد تمكن من الخروج بمهارة، وعدد من الجمهور شاهده عن قرب. وبعد أن بدل ملابسه فى حماية الروب الذى فرده الحاجب- تقدم منه عدد من المشاهدين ليوقع لهم على الأوتوجرافات،كذكرى لهذا اليوم العظيم..

.. وإذا ما تجمع الناس حول جناب القاضى، كان الحاجب يرقب هؤلاء الملاعين الذين يلمسون جسمه فى اشتهاء.. ليتدخل الحاجب.. ويبعدهم عنه.. وهو يحتويه فى أحضانه.. "يحتويه وحده فى أحضانه.."
وتلك ميزة لاتتوفر إلا للحاجب.. تضاهى ميزة أن يقبل الممثل-زميلته-معبودة الجماهير!

بعض الناس ينظرون إلى القضاة..

بنظرة غير بريئة!

"نظرا لضياع العديد من القيم.. وتبرير التصرفات الشاذة، صار يفضل أن يكون الحاجب نبيها وذكيا.. وقويا.. بجانب احتفاظه بيقظته.. حتى لايتعرض القضاة لعمليات الخطف والاغتصاب.. كما أن لابد وأن يطمئن لجانب الحاجب وسلوكه..

وبأن لايتواطأ مع العصابات الإجرامية المنظمة والتى انتشرت فى بلاد العالم الثالث. كفروع تعمل لحساب المافيا العالمية.. بعد أن سادت المبادئ الأساسية فى المرحلة الجديدة [معك قرش تساوى قرش- كل المزايا لصاحب المال.. لاشئ يستعصى على الشراء!!]

•• فى العادة، صار الحاجب مسئولا عن سلامة القاضى وحمايته.. وهو يسبح ويلهو، وهو بداخل القاعة "بعض العصابات ترتدى ملابس الشرطة.." فلابد وأن تكون الثقة كاملة فى الحاجب اليقظ. ومن المعلوم أن ذلك لايذكر صراحة فى بنود عقد العمل. إلا أن هذه المسئولية صارت أدبية،وملزمة،ولذا صار الحاجب الماهر- هو المنظم لبرنامج القاضى "النجم" ويحقق للمخططين فى المدينة الكوزموبوليتية المعادلة الصعبة. أن يحث القاضى على السباحة، كما يشجعه على أن يأتى بالحركات الخطرة التى تجذب اليه جمهور المشاهدين، وأن يكون نشيطا أيضا، وحازما فى داخل قاعة المحكمة.. ليتضاعف عدد المشاهدين..

كما يكون على الحاجب أن ينتبه لأى تبدلات غير طبيعية تحدث حوله،فيتصدى لمن يحاول من المعجبين الإقتراب الشديد من القضاة..

وقد صار- عدداً من القضاة،فى شهرة نجوم التلفاز [ولا نقول السينما،التى تدهور حالها أمام أفلام الجنس والإبهار الأمريكية،التى روج لها الوكلاء،وارباحهم منها مضمونة ومتصاعدة..]

••وصار يفضل أن يكون الحاجب نبيهاً وذكياً وقوياً ويجيد لعبة الكارتيه بجانب احتفاظه بيقظته.. حتى لايتعرض القضاة لعمليات الخطف،والإغتصاب. كما أن لابد وأن

يطمئن لجانبه،وأن لا يتواطأ الحاجب مع العصابات الاجرامية المنظمة،والتى انتشرت فى بلاد العالم الثالث. كفروع تعمل لحساب المافيا العالمية. والمقر الرئسى لهذه المنظمة الدولية أنتقل من صقلية إلى لوس أنجلوس،فصار جزء لايتجزأ من "العولمة" ومع افتتاح فروع للمافيا برمل الإسكندرية،عادت العصابات القديمة، فكما ترغب الدول الصناعية الكبرى على بقاء الدول متعثرة فى تراثها، وتقاليدها، حتى لاتنافسها صناعيا، وتسلك طرق العلم والتقدم.. فإن فرع المافيا بالشرق الأوسط،أعاد عصابات القط المفترس.. والقط الأسود.. والقط أبو نقطة بيضاء.. وغيرها من تراثنا المفقود..!

.. ومعظم العصابات، القديمة والحديثة،صارت تعمل بنظام المقاولة، كشركات النظافة الخاصة. وشركات الحراسة الخاصة، وشركات جمع المعلومات الخاصة..
[عفواً صارت كلمة التجسس ممجوجة،وتخدش حياء الأصدقاء]..

.. وثمة شركات تعمل فى مجال نقل المسئوليات من المعلوم إلى المجهول. بكافة الطرق المشروعة وغير المشروعة..

..وضمن هذه الطرق.. بل أهم وسائلها.. خطف القضاة، وتصويرهم فى أوضاع تهدد وقارهم،ومستقبلهم المحترم.. وقد يتم تعريضهم لجهاز مسح المعلومات من أدمغتهم،وتزويدهم بمعلومات جديدة تفيد عملائهم..
فإذا عاد القاضى إلى المحكمة "تائها" أخذ ينطق بأحكام لصالح العصابات،وسيعتقد جناب القاضى،بأنه أصدر الأحكام

التى يرضى عنها ضميره.. وأنه ينطق بالحق وميزان العدالة أمامه لايميل..

.. وقد يظن البعض، والقاضى فاقد القدرة على الحركة - مخطوف، ومرعوب، وفى حالة يرثى لها. بأن جسم سيادته مستباح.. أو أن تصوير القاضى فى أوضاع معينة قد يفيدهم مستقبلا، إذا ما وقعوا تحت يده..
فيبدأ التمثيل.. والتصوير، ويختلط الواقع بالخيال..
أيا كان الأمر.. فقد وقعت المسئولية.. جسيمة على الحاجب الذكى القوى اليقظ - برغم أنهم حافظوا له على البدله التيل الصفراء القديمة، والوجه الهضيم، وشعر لحيته نابت بما فيه الإيحاء بأن الحاجب ليس من طبقة القاضى - تماماً.. كما يعتمد الحكم غير الديمقراطى على قوات شبة عسكرية [الأمن المركزى، لايدخل فى نطاق هذه القوات، لأنه ليس شبه عسكرى. أنه عسكرى جداً] والمقصود أن يكون الحاجب على أتم استعداد بأن يضحى بحياته فى أى وقت.. يتعرض فيه القاضى للعدوان والخطف، حماية للعدالة..
إذ أن عمليات الخطف.. وتعرض القضاة للأجهزة المسح الحديثة، جعلت كل الجرائم الكبرى، تحصل على البراءة.
- وهذا طبعا لايدل على سوء القاضى، عندما يكون كل اللصوص الذين سرقوا البنوك.. براءة، أما صغار المجرمين.. حرامية الفراخ، وحبال الغسيل، والمواعين الألمونيا.. فقد تعرضوا للحبس والسجن والغرامة. وهو ما يدهش البعض أحيانا.. والقضاة منه براء.
ففيما عرضناه - نؤكد بأن ليس لهم ذنب فى ذلك ..
مؤكد أن التكنولوجيا.. تلعب دورا لصالح أصحابها، لتحقق أعلى عائد لمنتجيها..

المهرجان السياحى اليومى يؤدى إلى نشاط ملحوظ بين القضاة والمتقاضين!

[سريعا ما أكتشف القضاة.. بأن اللهو البرئ فى السباحة والغطس -لذيذ جداً جداً- على حد قول مستشار كبير فى التليفزيون المحلى.. وهو يقوم بتنفيذ الشرط الدعائى حول نشاط العاملين فى محاكم المدينة- والبرنامج مدفوع الأجر من اتحاد أصحاب الفنادق.والكازنيوهات.والبازرات.ومن لف لفهم..]

..الشئ بالشئ يذكر. مهرجان السياحة الذى يبدأ فى كافة المصالح,والمؤسسات والنوادى والشركات.. صباح كل يوم.. وخاصة ذلك البرنامج الذى ربط بين بدء افتتاح الجلسات فى المحكمة.. وبدء أنشطة المدينة السياحية.. من الثابت أنه تعرض إلى نقد شديد- من رواد بعض المقاهى البلدى،التى يتجمع حول ترابيزاتها،عددا كبيرا من الشباب والكهول الذى لاحيثية إجتماعية لهم.. مع بعض الصحافيين والفنانين. الصحافيين الذين لايعملون أعمالا ثابتة فى الصحافة القومية- ثابتة الأجر، مضمونة الربح. والفنانين.. من الذين يعرضون عروضهم على أصدقائهم،ومعارفهم،فلا شهرة لهم إلا فى النطاق المحدود..

.. الجميع كانوا يقاومون بشدة ما يحدث فى نادى القضاة، الذى جدده أحد رجال الأعمال، مقابل أن يلصق ملصقات دعائية لشركاته على جدرانه- ترتبط الدعاية بالمشروبات،والأطعمة،التى تنتجها مجموعة شركاته من

دهانات الوجوه والشعر ربط بينها وبين القضاة والمحامون والمتقاضون،كأن يشرب المحامى شوربة المكعبات الأزورية -قبل المرافعة- أو يدهن القضاة شعورهم بالكريم.. أو يرفع وكيل النيابة يده- ببرطمان صلصة القوام الغليظ..
وفى حديقة نادى القضاة.. يتناثر القضاة،يشربون القهوة على الريحة،ويفكرون، (والإعلانات تحيط بهم) فى أفضل السبل لإحباط اقتراحات رجال الأعمال،بأن يسبح القضاة فى بحر الميناء الشرقية العميق "كان ذلك فى البداية" ولكن نظام الحوافز والبدلات- وقد تم ربطهما ببرنامج السباحة وإجادتها.. وبعض القضاة رغبوا فى كسر الملل فوافقوا- وخاصة الشباب منهم. مما أجبر أعدادا كثيرة منهم على أن تسارع وتوقع بالقبول، وبعضهم قدموا احتجاجات شكلية- منهم من طلب بدلة غطس،على أساس أن المياه باردة معظم أيام العام، وإلا تم تحديد فترة السباحة،وربطها بالمصيف. فصرفت البذلات. ومنهم من طلب عوامة- أو طلب تعليمه العوم على أساس أنه لايمانع. ولكنه يجهل السباحة. فمكنوهم مما يطلبونه.. وعندما ربطوا المكافآت بسرعة تنفيذ البرنامج بلباس البحر.. فإذا بالقضاة جميعاً يتقنون فن العوم. ومن كان يصحب عوامة صغيرة تخلى عنها، فى مقابل صديرية من الفلين. وتلقائيا دب النشاط بين القضاة، وسريعا ما اكتشف القضاة بأن اللهو البرئ فى السباحة والغطس.. لذيذ جداً.. جداً.. على "حد قول مستشار كبير" فى التليفزيون المحلى،وهو يقوم بتنفيذ الشرط الدعائى حول نشاط العاملين فى محاكم المدينة- والبرنامج مدفوع الأجر من إتحاد اصحاب الفنادق،والكازينوهات، والبازار.. ومن لف لفهم..

.. وقد صار من أساليب الدعاية للسياحة،أن يطلق على القاضى.. "قاضى سكندرى" فيتصور المستمع،كيف أنه

يجيد فن السباحة وألاعيب الغطس –وإذا قيل قاض قـــاهرى يتصور كيف يجيد فن الرماية والرمح حول الاهرامات.

ولكل مدينة دعاياتها النابعة من شخصيتها، وأطلقوا علـــى الفنانين والأدباء –فنان وأديب سكندرى يتقـن فـن العـوم وأساليب الغطس– وكانت هذه الملحوظة المرفقة ضروريـــة لعدم خضوع الفنانين والأدباء فى الثغر– لحالة الإنتظام فى البرنامج السياحى،الذى يستهدف تنشيط المدينـــة، وعندمـــا كان يراد ضم الفنانين والأدباء إلى سباحة القضـــاة.. كـــان الفنانون والأدباء يهربون. ويقيمون فى القاهرة.. التى ليس فيها بحر الميناء الشرقية العميق..

..ولعل هذا البرنامج السياحى.. كشف الأسباب التـــى أفرغت الإسكندرية من أدبائها، وقضاتها العظام،وتركزهـــم فى العاصمة. غرباء على موائد البخلاء..!

.. ومهما كان الأمر.. النتيجة كانت مذهلة.. فى زيادة معدلات القضايا المنظورة على المحاكم.. وإن كان الإنفتـــاح قد فتح الشهية على الثراء السريع، وتصفيه القطاع العام.. ووقف التعيين فى القطاع العام والخاص.. بحجة اللجوء إلى المكينة والتشغيل الآلى.. [وهى أمور دعائية أيضا يصعـــب التحقق منها والجزم بصحتها..] كل ذلك– قد أتى بفيض من الجرائم الجديدة.. صنعت تلالا جديدة.. استوجبت المزيد من المحاكم،تقام فوق تلال القضايا..

.. ذلك أثرى مهرجان السياحة بالقضاة الجدد.. ونـــوّع فى أنشطة السياحة والغطس،وشكل فى ألوان ملابس البحر والمايوهات،مما جعل –هذه السباحة– واحدة منَ الأنشـــطة الجاذبة للمتصعلكين،والسائحين،فـــى المدينـــة، والأنشـــطة الخدمية حققت تقدما ملحوظا فى وقت قصير ..

•• إذ تم القضاء نهائيا علي البيروقراطي - الملعون إياه - الذي يتمسك باللوائح والقوانين.. وكأنها القرآن الكريم، ولا يفتح مخه،ويستوعب أساسيات العالم الجديد الذي تقوده دولة بها أعظم ملوك الدعاية ..

••كانت القضايا تتراكم، ويتأخر نظرها حتي يموت أحد المتنازعين،فتسقط الدعوي بسقوط المدعي.. أو يتم تجديدها من قبل الورثة،من جديد.وكان القضاة، قبل أن يعرفوا الطريق إلي السباحة.. وبعضهم صار يتقن ركوب الخيل.. والرمي بالنشاب.. استكمالا لوجوه القوة..
وكان في الماضي الكئيب محظور عليهم الاختلاط،، بعامة الناس -وارتياد أماكن معينة- يقولون أنها تقلل من هيبتهم واحترامهم أمام الجمهور،أما ورجال الأعمال والتجار صاروا هم المحظوظون.. فإنهم يرون من باب أولي،أن مشاريعهم كلها محترمة.. ومحترمة جداً.. طالما كانت تجلب العملة الصعبة. وتجذب السائحين، وتستهدف زيادة الأرصدة..

•• لذا فقد سمحوا للقضاة بارتياد نواديهم ومحلاتهم، وحتي باراتهم، كما حافظ القضاة علي أن لا يشاهدهم أحد وهم يشربون زجاجات تزيد فيها نسبة الكحول عن ١٠٪
ففي الماضي الكئيب. كانوا يفقدونهم انسانيتهم بالعزلة مما جعل الأمراض تسكن أجسامهم..إما أن يذوب عود القاضي ويموت.. أو يعتقد أنه مبعوث العناية الإلهية، وانه يد الله الباطشة. فيأخذ شكل ملاك بدون أجنحة، وذلك كان يؤدي احيانا.الي أن القاضي ينتهي إلي حالة غير انسانية- فيعتبر نفسه"نورانيا" من طينة غير طينة البشر..

.. ومعظم الذين يصيبهم هذا المــــرض. فــي اواخــر حياتهم،يظنون أنفسهم بأنهم تحولوا الي أرواح، وفراشـــات ملونـة- قبل أن تطلع ارواحهم إلـــي بارئهـــا.. فيتهيجـــون ويصيبهم الجنون اذا ما طارد طفل فراشـــة.. أو شـــاهدوا رجل محني الظهر، يتعكز علي عصا طويلة، ويمسك بيـــده شبكة لصيد الفراشات. تسقط قلوبهم في اقدامهم، وتتلاحــق أنفاسهم،وينشع علي جباههم العرق مصحوبا بدقات متوالية تصدر من صدورهم إلي حلوقهم، فتسمع علي أنهـــا دقـــات طبول الغابات الإفريقيـــة، اذا داهمهـــا الخطـــر.. وزارهـــا عزرائيل!

" الأمراض الخطيرة للقضاة.. يكشفها البرنامج السياحي"

.. بالصدفة البحتة.. عندما خضعت تجربة ســـباحة القضاة في المياه العميقة بالميناء الشرقية. اكتشـــف أحـــد علماء المدينة،بأن القضاة كانوا يموتون بـــأمراض غريبـــة اتسم بها عصر الإنغلاق القديم.. وقدم بحثا مفيدا في هـــذا الشأن. انتهي فيه إلي أن المرض الغريب الذي كان يعجـــل بوفاة القضاة في المحاكم،يأتي لهم من الحبر الزفر.. ذلـــك الحبر الذي تكتب به المذكـــرات والتحقيقـــات.. والقـــاضي المسكين.. كـــان يقـــرأ آلاف الصفحـــات مـــن المذكـــرات والتحقيقات ويندمج فيها-بينما الأوراق التي بين يديه تحت الضغط،والتكثيف،التصقت ببعضها. تلقائيا ودون أن يـــدري يضطر أن يبلل اصبعه بلسانه. وهو فـــي الواقـــع، يوصـــل جرثومة المرض اللعين التي تتخلـــق فـــي الحـــبر الزفـــر وكيماوياته.. فيتسمم القاضي تدريجيا. وتبدأ البقع الداكنـــة

تنتشر على سطح جلده.. ثم تحدث الانبعاجات غير الطبيعية في تركيبة الجسم البشري، فيأخذ شكل الضفادع الضخمة، أو السحالي أحيانا.. ويتحول الي عنكبوت يكاد يمشي على جميع اطرافه،ثم تبدأ التحولات الداخلية.. التي تجعل بصره يضعف ويري أشياء كالحروف،والبقع،سابحة في الفضاء، تضبب المرئيات حوله. ثم يحدث وصول كيميا الحبر الزفر الي المخ. فيري الذين حوله، أو الذين يحتشدون في القاعة ما هم إلا مجموعة من العناكب والجرزان والخنافس الصغيرة. والأصوات تبدأ في الاختلاط.. وخاصة اصوات المحامون،وهم يرفعون عقيرتهم في القاعة- [بعض من زعيق وجهير المحامين يكون صادرا بهدف إرضاء من وكلوهم، خاصة إذا كانوا من أثرياء الانفتاح- الذين يريدون بأموالهم خلفا..]
ويضطر القاضى،أن يسد أذنية بقطن مغموس فى الشمع،كما يضع على عينية نظارة سوداء_ ويعتزل الناس.. ويتفرغ لعملية الهرش فى جسمه..

..أما وقد تم الوصول إلى أسباب هذا المرض الخطير، فقد صدرت التعليمات لجميع الأراشيف بالمحاكم الكلية والجزئية والإستئناف، وأمن الدولة. والإدارية العليا. وجميع من يستخدمون الحبر الزفر، ويخزنون الأضابير فى المخازن الرطبة، ولا يتخلصون منها قبل عشرات السنين.. أن يرضخوا للحل الوحيد المتاح لهم. وهو نشر المستندات والمذكرات والتحقيقات والمرفقات على حبال الغسيل _وهى طريقة تؤدى إلى ضرب عصفورين بحجر واحد. إذ يمكن الاستفادة من هذه الرايات سياحياً. إذا ما نظمت على شكل زينات لزيادة مظاهر المهرجانات،والإحتفالات،من ناحية.. ومن ناحية أخرى. تتحمص المستندات تحت أشعة الشمس

وحرارتها، ويتم قتل ميكروب الحبر الزفر.. وجرثومة الورق المخزن بطريقة سيئة..

.. وإذا ما إشتركت جميع المحاكم فى هـذا المشـروع الذى يبدو بسيطاً، وغير مكلف للدولـة كثـيراً_ إنخفضـت حالات الوفاة بين القضاة بشكل ملحـوظ.. وعـاد القضـاة يموتون بتصلب الشرايين، وأمراض القلـب،والشـيخوخة.. كما كانوا يموتون منذ مئات السنيين..

.. إلا أن كل كشف جديد -كما هـى العـادة- يـأتى مصحوباً بمضاره.. وكما كان التلفاز إبتكار العصر المسلى، فإن نسبة الحول وضعف البصر إذداد بين الناس -والأطفال بالذات- وراجت الأحوال فى عيادات العيون..
أوراق القضايا المنشورة على حبال الزينة.. التى تأتى مـن ملفات القضايا، والتى قد يستغرق النظر فيها عدة سـنوات. وللسرعة التى تم بها مشروع نشر المستندات لتخليصها من جرثومة الحبر الزفر، حدثت بعض الإرتباكات. وجل مـن لا يسهو!

.. فعندما يتم إعادة الأوراق إلى أضابيرهـا. يحـدث بعض الخلط غير المقصود_ فقد تنتقل أوراق من ملف إلـى آخر. وعند نظر القضية..الجانى الحقيقـى يحصـل علـى الإفراج بدون كفالة.. والمجنى عليه ينطس حكماً قاسـياً.. هو ونصيبة.. وربما يكون حبسا بسيطاً مشمول بغرامة، أو سجن عن جنحه،أو جناية تشملها الرأفة.. وفى كل الأحوال جميع أحكام السجن والحبس يمكن إعادة النظر فيها خـلال سنوات الحبس، وإستمرار الشـخص فـى التظلـم ورفـع الشكايات.. والمحافظة على سرسوب النفقات على عدد من المحامين..

.. أما الذى (يُعدم) عن جريمة لم يرتكبها.. فمن المؤكد أن حظه العاثر هو الذى ألقى بورقة (مؤسفة) فـــى الملــف الخطير..

.. هنا قد يشعر القاضى، إذا ما تبين الخطأ، بشـــئ مـــن وجع الضمير.. ولكن ما الذى يفعله الإنسان أمام تصـــاريف القدر.. وكل إنسان له كتابه، وساعته، ولا يحصل إلا علـــى ما هو مقدر له ومكتوب (لعل القاضى إذا وصل إلـــى هــذه النقطة، يشعر بشئ من الراحة، والبعــض يـــرى أن الــذى أعدم.. لا بد وأنه قد أتى بأفعال يستحق عليها المـــوت.. إذ أن الله يمهل ولا يهمل، وجميع من يدخلون قفص الإتهـــام.. يصيحون من وراء القضبان "برئ يا باشا.. أنا برئ واللـــه العظيم يا باشا.." وليس من المعقول أن جميعهم أبرياء..
وإلا ما خلق الله النار.. والجنه..)
مما يعنى أن الإنسان يملك جزءاً من إرادتـــه، التـــى يثـــوب عليها، إما بالجزاء الحسن.. أو العقاب غير الحســـن. ومـــن المعلوم أن الموت الخطأ غير المقصـــود.. جُنحـــه وليـــس جناية..!

[.. وهنا يتنفس القاضى المذنـــب الصعـــداء.. ويخلـــع النظارة السميكة، وينام قرير العين.. وقد سحب الغطاء على ضميره حتى منتصف ذقنه..]

نجاح التجربة دعى المسئولين إلى تعميمها

ثم دعاهم مرة أخرى إلى تخصيصها

.. عندما دب النشاط فى أبدان القضاة بسبب السباحة وألعاب القفز الخطرة التى تخلف عشقاً للحياة.. وأيضاً عندما نجحت تجارب القضاء على أمراض الحبر الزفر.. وجرثومة الورق المضغوط.. وتخطى بعضهم صدمة الأحكام المتناقضة، والتى سببتها حبال الزينة. فقد آثر عدد من المسئولين. وهم يرصدون نجاح التجربة إجتماعياً، وصحياً.. أن يعمموا هذه التجربة الفريدة، وسمحوا للأهالى وخاصة السائحين النازلين بالفنادق، والذين يتجمعون على ترابيزات السهر فى الكازينوهات. بأن يشاركوا السادة القضاة فى السباحة معهم. وحتى لا يعترض أحد سمحوا أولاً لوكلاء النيابة. وكتبتهم، بأن يلهون قليلاً ويسبحون جنباً إلى جنب مع المستشارين الكبار.. فى إشارة بالغة، إلى حالة الديموقراطية. والحرية. وإذابة فعلية للفوارق الطبيعية.. وذلك كان يتم طبقاً للبرنامج السياحى، وقبل بدء فتح الجلسات.. ولكن -فيما يبدو- أن التصريح الذى سمح باختلاط الحابل بالنابل فى البحر، والإقتراب الشديد، الذى قد تم بين الفقير والغنى، الغالى والرخيص، الثمين والوضيع، أدى إلى نتائج معكوسة..

.. لقد جاء التصريح بتعميم التجربة على أثر إعادة إنتخاب أعضاء المجلس التشريعى فى المدينة، أى أنه حدث تحت إنفعال معين، وهدف محدود.. كنوع من أنواع التسهيلات، لمن يحملون بطاقة إنتخابية.

.. وقد ضاعت _كالعادة_ أصوات المعارضة فى زفـــة التهليل بسلامة القرار، وإذاعة اغنية "يا كـــايد.هم" للفنـــان محرم فؤاد..
فعندما أخذ الجمهور العادى يشارك القضـــاة فـــى ســباحة الصباحات الجميلة.. وقعت الكارثة، وأصـــابت عــدداً مـــن وكلاء النيابة المتشددين..

.. إذ غرق ثلاثة من وكلاء النيابة دفعة واحدة. وهـــم الوكلاء الذين يتميزون بأساليب بالغة فـــى إقنـــاع القضـــاة بإحالة أوراق المتهمين إلى المفتى. وتبين للطبيب الشرعى عدم وجود مياه فى جوفهم، مما يؤكد أن الخنـــق والوفـــاه تمت قبل الغرق..
وثبت بما لا يدع مجالاً للشك..أن لدى وكلاء النيابة قضايـــا كبرى.. لشخصيات كبرى. فى خبطات كبرى. لأحوال كبرى تمس الذين يعيشون خارج البلاد فى إنتظار.. هـــدوء تلـــك الأحوال التى تحركها عادة (النيابة) فيؤجلون العودة" ليحكون ظهورهم بأظافرهم"
وانتهت التحقيقات بأن "الفاعل مجهول"
وبذلك -بعد تعميم التجربة النشيطة- عادت وإقتصرت على القضاة وحدهم.. على أن تتم سباحتهم تحت مراقبة الحجاب الأقوياء..
وسمحوا للحاجب _الذى هو لا بد وأن يتقن فـــن الســباحة وعمليات الإنقاذ السريع_ بأن يقوم أحيانـــاً بـــالمبيت مـــع قاضيه.. ولا يسمح لأحد باللقـــاء بـــه، إلا إذا تحقـــق مـــن شخصيته. وتأكد أنه لا يمت بصلة لعصابات القط أبو نقطـــة سوداء. كما تم تصوير هذا المشهد مـــراراً.. ليبـــث تحـــت عناوين تمجد الديموقراطية.. فيما يعنى أن الغرب يأتى منه الكثير مما يسر القلب!!

تمثال "للفاعل المجهول"

جاهز بجانب المحكمة

.. لعل إنخراط المجتمع الجديد في عمليات التعلم المهنية،أو الصناعات الجزئية.. أدى إلى التجاهر بعدم الحاجة إلى الفلاسفة،والمؤرخين،وأساتذة اللغة،وغيرهم من الذين يهتمون بالعلوم الإنسانية وغيرها،والذى ثبت بالدليل القاطع الذى لا مراء فيه،أن الدول العظمى يمكن أن تنموا وتصير عظمى بدون فلقة الدماغ، التى يسببوها دائماً. وعلى أساس أن المجتمع الجديد.. هو أبو الإنسانية، بعد إسقاط فترة معينة من الحسبة.. وقد أشيع بأننا لا نحصل من وراء العلوم الإنسانية،إلا على الإثارة ووجع القلب. وعلينا أن نهدأ ونتفرغ للعبادة، وندع الخلق للخالق. وصارت الحكمة تبرشم فى برشامة.. ومن الحكم الشائعة والتى سكنت فى أذهان العامة فى المدينة.. ويتناولونها يومياً مع الهامبورجر.حكاية الفاعل المجهول.

"حكاية الفاعل المجهول"

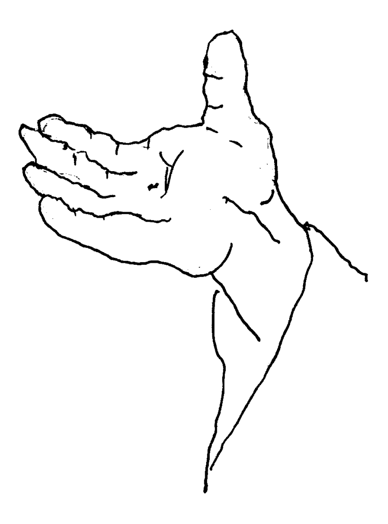
أن التحقيقات فى معظم الجرائم المدروسة التى ترتكبها العصابات المنظمة.. كعصابة القط المفترس.. والقط الأسود.. والقط أبو نقطة بيضاء.. وغيرها.. وجدت معاونة فعالة من فرع المافيا فى الشرق الأوسط، والذى صارت له فروع فى الحضرة القبلية،وأرض الفولى، ولولا هذه المساعدة التى تتأسس على الاسلوب العلمى.. ما أمكن لكافة التحقيقات،أن تنتهى إلى أن الفاعل "مجهول"!!

.. وأمام تكرار الفاعل المجهول _الذى يعنى فى الواقع تقصير ما، حدث فى المتابعة، وضبط الأدلة، وتحليلها..
فإن السادة الكبراء_ أمكن لهم ترويج مقولة "الفاعل المجهول.. يعنى نجاة أحدهم.. وعدم إلقاء القبض على شخص برئ ليدفع ثمن جريمة لم يرتكبها.."
بما يعنى أيضاً -لدى العامة- أن الفاعل المجهول أتاح الفرصة لشخص ما أن يفلت. ولكنه أنقذ العشرات من الذين يتم إلقاء القبض عليهم، وتطلع عينهم ليثبتوا أنهم أبرياء مما هو منسوب إليهم. بشتى طرق الإثبات. بينما عادة يكون المقبوض عليه_ مسجوناً على زمة القضية.. ويمر بمرحلة تسمى "مرحلة العصر الكراكونية"
وقد استقبلت الجماهير _"الفاعل المجهول"_ بشئ من الترحيب – واعتبار أن التحقيقات قد اقفلت، وأن الناس تفك عن نفسها وتخرج من بيوتها وتجلس على المقاهى، وترتاد الميادين، وتمشى فى الشوارع،دون هاجس من إلقاء القبض عليهم.. صدفة..

..ولما قل معرفة العامة بالتاريخ.. تم الربط بين قاعدة تمثال الخديوى اسماعيل _ الذى عزل للمرة الثانية من المنشية.. إلى كوم الدكة.. ليعمل حارساً على المسرح الرومانى القديم..

.. ولعل وجود المحكمة بجانب نصب جندى البحرية المجهول،وتلك المهرجانات اليومية أمام المحكمة _ وخاصة عند نقل السياسيين من السجون إلى المحكمة فى زفة من عساكر الأمن المركزى. الأمر الذى جعل معظم العامة، ومعظم من يعتقدون أنهم مثقفون.. يظنون أن "النصب المجاور للمحكمة".. يخص "الفاعل المجهول" الذى يرتكب جناية ما، ويفلت [ليس المقصود من يحتالون على البنوك

ويهربون خارج البلاد بعد حصولهم على قـــروض ضخمـــة بدون ضمانات _ فالفاعل هنا،مدير البنك الموجود بـــالداخل]
•وبمرور الوقت، ولرغبة المخططين فـــى المدينـــة،نســيان الحروب،والمطاردات،والخوف،والشعور بالحرية،ســـمحوا لعصابات القطط.. أن تقدم فى المناسبات المافُيـــة.. أكـــاليل الزهور.. تحية وتقديراً للفاعل المجهول..[ليـــس لجنـــدى البحرية المجهول]وقد أضيف ذلك المهرجان المافياوى،إلى جملة مهرجانات المدينة السمهرية.. لذا لزوم التنويه..



.. في أوقات تتزايد فيها الضغوط.. يضطر أن يلجــأ الــي محتواه البعيد.. ربما سبب لة ذلك كثيرا من السهاد.. و لكنة اذا ما استيقظ من نومة.. قد يتذكر اســمة مقرونــا بــالجد الرابع، وأحيانا بالخامس.. يطمئن بأنة كما هو، يعيش علي الماضي الذي كان .. الماضي الذي كــان و كــان وكــان.. (يعرف بأن ليس لــذلك ضــرورة، والعــالم يمــر بعصــر العولمة، لكنة الثبات علي المبدأ، مهما كانت الهزائم..)

و كمبورة انسان بســيط، لكنــة ميديــاوي طويــل التفكير، من الذين يسيرون بجانب الجــدران.. مــن الذيــن يلجأون الي الأرصفة، رعباً، كي يبتعد عن حركة الســيارات المجنونة.. وذلك لــم يكن من اختيــارة الحــر.. و لكنــة الطريق الوحيد المتاح لأمثالة، فصار يؤثره عن المغــامرة التي لا ضمانة له فيها..
اذا ما خسر "الجلد" سيخسر "السقط" !!

كما أنه يعرف، بأنة يتقاضى أجرا.. ويبيع جهدا- قد يستغنون عنة وأجــره لا يخضع لقياسات الحياة من حولــة - ذلك يجعلة يترفق بنفسة.. كما يجعلة يري أنة من الجنون أن يزج بنفسة في مشاكل تتناول قانون فائض القيمة.. حتي لا يكثف من عزلتة
(الواقع أنة يجهل خلفيات ذلك القانون، مع أنــه ميديــاوي جدا)

كما انة يعرف بأنة مكبوت بسلسلة من الدوائر القاسية. لكل دائرة قانونها المقدس، تدور حول بدنة كحبال متينة، أوثقوه بها، والقوا به في اليم؛ يحاول النجاة.. ان أمكنة ذلك..

ودوائر الضغط علي جسمة عديدة.. تبدأ من رئيسة المباشر.. المحبط دائما، والذي يشعر بزهو الكبار والسادة أحيانا.. فيبدو كمن ارتدي ثوبا أكبر من بدنة الممصوص.. ولا تنتهي الدوائر الا عند أمين عام الامم المتحدة. الذي لابد وأن يكتسب رضاء القطب الوحيد.. ومجلس الأمن الذي يتحكم في توجهاتة عدد محدود من الدول الغنية..

(تلك الضغوط العالمية ليست من مسعاة.. أنها نتاج المائتي قناة التي تنفتح حجرتة على أقمارهم.. وهى حجرة من شقة صغيرة في بيت يقع في نقطة علي شمال القارة الإفريقية، في منطقة مطلةعلي البحر المتوسط. الذي صار علما علي المنطقة، بديلا عن.. العرب والعروبة....و.....و.....)

.. وصار يعرف.. أنهم جميعا؛الذين من بني قومة.. والذين يتحكمون في بني قومة، جميعهم، يستطيعون تضييق الدوائر حوله بأستخدام آخر ما أنتجتة التكنولوجيا.. حتي يقتنع بأنة مجرد نقطة ضئيلة، فى محيطهم الهادر بالعلوم.. وهو في الواقع؛ سلم بذلك، واقتنع اقتناعا تاما -تخللتة محاولات هزيلة للمقاومة- بأن لا سبيل للمعارضة.. والعاقل يعلم بأن المعارضين الأوائل، سوف ينكل بهم تنكيلا شديدا، لردع الآخرين..

وما علية الا أن يجعل إرادتهم هي الأعلي؛ وهي إراده لا راد لها .. يبروزها في اطار إرادة الأقدار..

(أي شيئ يحيلة إلي الأقدار، يستريح، وينصرف إلى شئونة الخاصة، لكن بينة وبين نفسة .. يعرف بأن اللة أرحم منهم كثيرا..)

وهو عندما يسلم بشئ.. يصير كمـــن ســـلم نفســـة
لخصومة دون مقاومة تذكر. سيضربونة قليلا.. و يحبطونه
كثيرا.. وأذا ما تبينوا صدق تسليمه.. ترأفوا بة.. وقد يصير
فردا من شعبهم الصالح..!
(من أهداف الحفاظ علي ريشة التمايز.. وجود من يتمايزون
عليهم، ويحسنون اليهم.. حتي يتم الشعور عندهم بـــالزهو
والتعالي.. وإلا ما فائدة التكالب علي الثروات، وعمـــل كـــل
شئ للوصول اليها..لكن علي المواطن الصالح وهو يخـــاتل
وينافق أو عليه أن لايصدق كل مـــا يتفوهـــون بـــه.. وأن
لا يظهر ذلك وألا عرض نفسة للمهالك.. علية أن لا ينســـي
الحكمة الخالدة " العين التي لا تعلو علي الحـــاجب" وينظـــر
للمسألة من جانبها الواقعي، فالعين عملها مهم للغاية ..
والحاجب يمكن الأستغناء عنة.. أو رسمة بالريشة..!)

..ولعله يدرك بأنهم ســـيعودون مـــن وقـــت لآخـــر..
يعرضونه لنفس الضغوط، حتي لا ينسي من هو.. ولعل من
رحمة الله على الميداويين، يتفق الضعيف و القـــوي علـــي
أسلوب غير معلن.. يحفظ ماء الوجه للضعيـــف.. ويحفـــظ
المكانة "المميزة" بأشعاعاتها القوية متعددة الألوان.. للأغنى
الذى هو الأقوى.
لكن لا يعدم الأمر أن تتسلل في مراكز السيادة. فئة خبيثة..
هوايتها إثبات سيادتها "عمال علي بطال" بسبب الإحســـاس
الشديد بالدونية، والعمل الدائم علـــي إزالـــة وضاعتهـــا..
يسلون وقتهم بإذلالهم الدائم له. و يعتبرون ذلك مـــن أهـــم
أعمالهم العصرية، والمسألة صارت معتادة.. منـــه ومنهـــم
وصار ذلك طبيعيا، لا دهشة فية ولاغرابة..

((جميعا نشرب الماء و لا نفكر كل مرة فى أهميتـــه
الشديدة لحياتنا كما التائة في الصحراء.. قد يمـــوت خـــلال

ثلاثة ايام، اذا لم يعثر علي الماء.. لكن براعتهـم أحالت كل شئ الي ممتلكات لهم.كل شئ صـــارت عليــة.. مـــاركتهم المسجلة ـ من يكون صاحب نهر كبير.. وموسم أمطار..
لو يفكر في الموت عطشا ـ كما لم يعد يفكـر كيف انتشرت ماركتهم المسجلة.. وكيف تم أختيارهم، هم بالذات؟]

ومع أنه بات يعرف أن "كيف".. "ولماذا"
تجلب عليه ضغوط الدوائر – ويكون عليه أن يهرب منهـا.. ويتناساهـا، حتى إذا ما وضعوا آذانهم على فمه.. يتمســـك بالكتمان ـ يحتاط بما توارثه من خبث آلاف السنين، يقـــاوم شرورهم،ويظهر أمامهم مستبشراً، ضاحكاً بينما هو حزيـــن يبكى من الداخل، يحيل "كيف" إلى "كيف أكون فـــى حـــالى" "وكيف أكون ماركة مسجلة.. زاهدا فى الدنيا الفانية..؟
ويحيل "لماذا" إلى "لماذا أدخل نفسى فى دوامـــة الشـــيطان الرجيم" لماذا لا أسلم، وابتعد، وأحط بعجـــيزتى المدموغـــة على مقاعد المتفرجين؟!
****

-- يعلم أن كثيرا من أمثالـــه، صـــاروا قطعانـــا علـــى عجيزتهم ماركتهم المسجلة، والأمر لن يكلفه إلا شـــئ مـــن التغاضى. وأن ينأى بنفسه عما يثير الريبة..
ولعله إذا ما اندمج فى طريقة صوفيـــة حريريـــة.. ســـيبعد بنفسه عن الشكوك. والمسرح مسرحهم، والرواية روايتهم، وبشئ من التروى فى التفكير لـــن يكـــون اللاعبـــون كمـــا المشاهدون. فاللاعب يبذل جهداً، ويخوض حرباً.. ويبـــدى موهبة.. أما.. المتفرجون الفقراء من أمثالـــه.. مـــا الـــذى يتطلعون اليه، إذا ما توافر لهم العشب والكلأ..؟
-- ما عليه إلا أن يهدأ.. يعيش فى حالـــه.. "مواطنـــا صالحا".. كافى خيره شره. ضمن القاعدة السليمة من القلق وفلقة الأدمغة..

.. والمسألة فى الدنيا الفانية– من حكمة الله– تكـــاد تتساوى من تلقاء نفسها. فلا أحد يأكل أكثر من أحـــد. قـــد يأكلون أفضل، لكن ليس من أجل ذلك تقوم الثورات. ولا أحد يستطيع أن يرتدى عشرة حلل، أو يضع قدمه فى أكثر مـــن زوج من الأحذية، حتى السادة العظام إذا ناموا.. لن يـــأخذ جسمهم أكثر من حجمه، ولو كان يسكن قصراً هائلا.. لـــه حديقة واسعة.. أو كان يملك القصور، والشـــقق الفـــاخرة، والاستراحات العديدة..

[أحيانا تكون الملكية بالطريقة المســـتفزة. رد فعـــل نفسى لأيام سوداء مرت. وخوف شديد مـــن الفقـــر والإملاق. فالذى جاع.. يحرص على توفير الطعـــام فى منزله أكثر من أى شئ آخر.. والـــذى تشـــرد.. يقتنى مساكن عديدة.وفى كثير من الأحوال. تختلـــط المسائل الدينية التى تدعو إلى السلام النفسى، مع المســـائل الحياتية التى تحتمى بها النفوس مـــن رعب الواقع كبقايـــا خوف الإنسان من الطبيعـــة، وما تأتى به من مفاجآت.لـــذا فإن حالات الزهد التى قد نرغم على إتباعهما. تكون غـــير قاسيـــة على النفس، إذا ألبسناها غطاءً آخروى. فتبدو أمام الجميع. مثالأ يتبع، ونسربل على ختـــم العجـــيزة ثوبـــا، يلائم الأجواء الحارة. ولايجعلهـــم يربطـــون بينـــه وبيـــن المتفرنجين. الذين يقفون طويلا أمام أوجه الهرم الثلاثة.

فى القاموس، الهرم الإجتماعى. يقصد به التركيبة الطبقية للمجتمع. على أساس أن القاعدة عريضة والمداميك فوقها تتناقص.. حتى يكون على قمـــة الهرم "حجر" واحد..!

لكن أوجه الهرم الثلاثـــة. المعنـــى بهـــا. الوجـــه الاجتماعى. والوجه الثقافى. والوجـــه السياســـى. وهى وجوه لاتهم إلا مداميـــك المنتصـــف– يقـــال عنهم المثقفون "أحياناً"، وموقعهم فـــوق القـــاعدة

مباشرة. وتحت القمة مباشرة. وهم ليسوا طبقـــة، وليسوا طرفا فى مشكلة. ومشكلتهم فى وجودهـــم نفسه. وكثيرا ما جرت هذه الأوجـــه، المصـــائب على معتنقيها، وقد وعى الدرس مبكرا.. فقد بـــدأ فى المراوغة.. كأى حيوان يبحـــث لنفسـه عـــن دفاعات.. تبعد به عن الانقراض.. الطفـــل لأحـــد يعلمه كيف يأكل]

أما وقد أتقن فن المراوغة. وبدا أنه قد سلم لهـــم. فإن أزمته بدت محصورة فى "الموقع" والماركة المســـجلة، مغطاة بالثوب الأبيض، الذى يصلح لأشياء عديدة.. النـــوم، والصلاة.. والمقاعد، والأسرة..!
وهكذا مرت عليه الأيام ليصل إلى عتبات عقده السادس.

..ولعلهم فى بداية هذا العقد. يطمئنون، ولايلتفتون إلى أمثاله، فهو طبقاً لعمره، وموقعه، وتاريخه.. لن يشكل خطراً يذكر.. فى هذه المرحلة المتأخرة سيمكنوته مـــن أن يضـــع قدمه المترددة على أول درجات سلمهم الخطير.. إذا مـــات الرئيس المباشر.. يرقى بالإختيار.. والأمـــن لـــه ورقـــة خطيرة فى ملف الترقية.. أهم كثيرا من شهاداته الدراسية.. أو خبراته المكتسبة..

[ومن الثابت أن الرؤساء المباشرون لايموتـــون عادة قبـــل خروجهم إلـــى المعـــاش القـــانونى.. بسبب صعودهم إلى أولى درجات السلم الخطير فى بداية العقد السادس، وبعد زمن طويل من الكمـــد تكتنفهم حالة من الزهو.. تجدد خلاياهم، وتشـــيع فى أبدانهم كثيرا من الحيوية.. لكن "المـــوت" لـــه مواقيته المحددة.. إذا جـــاءت ســـاعته.. تتعـــدد الأسباب والموت واحد..]

•• كما أن وصول الإنسان إلى العقد السادس فى مجتمع شرقى جنوبى. وليس غربى شمالى. يكون كمن قطع معظم المارثون جريا، ولم يتبق له إلا القليل.. ويصل إلى النهاية.. كم يكون متعبا ومنهمكا.. ومع ذلك يقاوم باستماتة.. ليفوز.. دافع داخلى يجعله يستمر، وهو إذا أخفق.. له أن يختبئ خلف حالة من الزهد.. يصب اللعنات على متع الدنيا الفانية التى يتكالب عليها الأسياد. ومن المعلوم، أن الحرب العالمية الأولى والثانية.. حدثت بين الأسياد. ومات فيها ملايين العبيد.. لكن فيما بعد ساد الإحترام بين الأسياد. أستعدادا للحرب العالمية الثالثة. وفيها سيعقدون إتفاقا. بأن تدور بالأسلحة التقليدية. وأن لاتستخدم فيها الأسلحة النووية حتى لايموت الأسياد.. مع العبيد..

•• وهو إذا ما وضع قدمه على أولى درجات السلم الخطير.. سيكون -وهذا هو المهم- قد خبر الدنيا ومصائبها.. وصار يغازل الآخرة ومباهجها.. ويكون قد تعلم كيف يبرع فى إبداء كلمات المديح. يمتدح الأسياد جميعا على إختلاف أصنافهم.. حتى إذا قابل سيداً على باب الفندق الفاخر، يسهل عليه صياغة عبارات التهانى الرقيقة المتعلقة بأحد الأعياد الخاصة أو العامة..

••وإذا شاهده يهبط بأقدامه الكريمة على السجادة.. من السيارة الفخمة. إنحنى، وأسعفته القريحة، بما يؤكد للأسياد دوام السيادة...

•• وأن يكون ذلك تلقائياً، يعبر عن حالة صدق. فإن السادة لهم وسائلهم فى كشف حالات التآمر والكذب..

.. واللقاءات ستتم كثيراً بينه وبين الأسياد، ما عليه إلا أن يكون منتبهاً، ويمنحهم إحساساً بأنه أخــروى، وليــس دنيوى.. فلا خطر على إمتيازتهم الدنيوية منه..

[ذلك سيتم فى حالـــة تمسـكه بــارتداء الملابـس المناسبة للحياة المدنية التى بها سيارات وترماوات وقطارات وبسكليتات.. ومطالب حياته. تجعله يجرى بالمشوار، من الصبــاح حتــى المســاء، فيصــير البنطلون الذى كان عربياً ثم تحــول إلــى الغــرب. أفضل كثيراً من الجلباب الصينى والتيوانى، الــذى دفعوا به من حجـــرات النــوم، إلــى الشــوارع والمكاتب والمصانع والجامعات. كراية تعــبر عــن إتجاه معين. ومع أن هذا الاتجاه قد يرضى الســادة فى الدائرة العالمية.. إلا أن الخطر يكمن دائماً فــى التعصــب. فى الجنــوح بعيــداً. والرعــب يكمــن "للسادة" فى شعار الأصوليين "الله يملك الدنيا ومــا عليها" وقد أسقطوا شعار الفقــراء "الشــعب يملــك الدنيا وما عليهــا" وكلا الشعارين ضد إمتيــازاتهم. بما يعنى أن "السادة بالدائرة المحلية والعالمية" يطلعون من نقرة ليقعون فى بئر.
لذا يتــم الحفــاظ علــى حلــف عســكرى عــالمى كبيراً. لا يواجه حلفاً ظاهراً أمامه.. وذلك لدوام حالة القلق التى تكتنف حياة الســادة، وتنغــص عليهــم عيشتهم. وهو ليــس قلــق مــن الــثروات التــى يسيطرون عليها،ولكنه قلق من الثورات الملعونــة التى تهب فجأة كريح السموم دون إنذار.. لذا فهم لا يطمئنون لأحد، وحتى الذيــن ختموهــم بمــاركتهم المسجلة. وبذلوا الجهد الجهيد فى إقنــاعهم بــأن الإيمان العميق، يضمن للمؤمن قصريــن.. قصــر

نفسى فى الدنيا.. وقصر طوبه من فضة وطوبة من ذهب فى الآخرة.

ولكن ما يجعله فى حالة قلق دائم وعدم رضاء.. أن القطب الوحيد الذى يقود العالم.. "علمانى" يتبنى الإرهاب الغير علمانى.. كسلاح من أسلحة المخابرات.. يبث به حالات الإزعاج فى أنحاء الدول التى تتمرد على طاعته، أو تنظر إلى حالة الإستغلال التى تتعرض لها -والخلاف بينه وبين أدواته وارد- "ومع ذلك فإن صاحبنا صار يستمرأ حالة الإيمان.." الشديد، فشاع فى نفسه حالة إطمئنان حقيقى..

.. الإيمان، جعله -فى آخر أيامه على الأقل- خفيف البدن..وقد تخلص من أثقال الدنيا وزخارفها، وصار روحانياً خالصاً.. يحلق فيما بين السماء والأرض..!

روحاً ليس لها فى كل المتع الرخيصة. تلك المتع التى يتحاربون ويتصارعون من أجلها. روح لا ترتاد المسرحيات التى تضحكهم. ولا الشواطئ التى تسعدهم. ولا تقرأ الكتب التى تفتق عقولهم. ولا تميل إلى الأبدان التى يريحون رؤوسهم على صدورها اللينة، روح لا تشتهى الطعام الملعون الذى يغرمون بإلتهام أصنافه المتعددة فيشيع فى أجسامهم السمنة والبدانة. ولعله إذا ما إتبع نظامه الخاص الروحانى سيستيقظ من نومه ناسياً من هو. وقد لا يتذكر إلا الإسم الذى إختاروه له، كماركة مسجلة.. "كمبورة بتاع الميديا"

وسيكون تذكره للجدود.. رجعية لا ضرورة لها.. والأسهل له أن يبدأ تاريخه من اللحظة التى سلم فيها

عجيزته لختمها بأختامهم، وهم "أحيانـــاً" يقـدرون الذيـن يمضون حياتهم فى سلام. قد يرفعونهم درجة.. فوق درجة.. ويكفيه.. وكل شئ إلى زوال، ونهايته محتومة.. أن يعيـش ويموت. "مواطنا صالحاً.." لا يهش ولا ينـش، كـالملايين الذين يموتون فلا يتذكرهم أحد. يموتون كـل يـوم دون أن تشير إلى أسمائهم الصحف الكبرى. دون أن يكتـب عنهـم سطراً ولو بإعلان مدفوع الأجر.

[الإعلانات عن حالات الوفاة. المدفوعة الأجر، يدفع أجرها العائشين مـن أقـارب المتوفـى. ليذكـروا أسمائهم ووظائفهم وحيثيـاتهم، والدرجـات التـى قطعوها على السلم الخطير..

والميت فى كل الأحوال لن يهمه النشر عنه، وعـدد كبير من الذين ماتوا، لـم تذكر الصحف أسمائهم إلا فى صفحة الوفيات..

لكن الإعلان المدفوع الأجر ينم عن حالة إجتماعيـة وموقع فى مدماك معين بالهرم. وقد يستفيد الأحياء من لفت أنظار السادة الكبار.. الذين يرسلون رسائل العزاء لمن يعلنون... تركز عن من بقى مـن أهـل الميت، الذى ذهب ليستريح.. تفكر العائشين بإتفاقية الجات. وبأنهم جميعاً صـاروا.. ضمـن الماركـة المسجلة..]

وإذا تناسوا.. يمكنهم مع وجود مرآه طويلة، من مشـاهدة الماركة على الكمبورة.. حتى "الماركات" صارت فنـاً ولهـا رسم وشكل.. و..

الحديث عن الماركات يطول..!

قال ضابط التشهيلات متجهماً، بينما ينظر فى أوراق رفعها أمام عينيه، مكتوبة بالكوبيا، ومبصومة بأختـــام مســتديرة ومثلثة..

– إنتبهوا.. الحراسة مضاعفة، إنه سياسى. وجلسة ســماع الأقوال ستبدأ بعد ساعة تقريباً.. ألم ننبه بـــالحضور قبــل التاسعة..؟

وإلتفت الضابط الشاب الذى حضر لإستلام المتهم.. فى شئ من الخفة، والقلق، إلى الشاب النحيل الذى يرتـــدى بنطلوناً غامقاً، وقميصاً فاتحاً نصف كم. تبرز من أكمامــــه الواسعة ذراعان نحيلان، يتدليان بجانبه فى إستكانة.. تنفى تلك الخطورة المزعومة. ومع ذلك قال لجماعـــة الحراســة التى ترافقه:

– ضعوا فى يده (الكلبش).. هيا خلصونا..

وإصطكتا حلقتا القيد الحديدى فــــى يــد الشــرطى البدين.. الذى كان فى حلته البوليسية التيل –أشـــبه بمــن يرتدى منامة قديمة، ينام ويقوم فيها، لا يميزها عن ملابس المساجين الدبلان الفاتحة، إلا ذلك القايش الـــذى إرتفعــت نحاسته المربعة فوق صدره، لتفسح المجال للإنبعاج الـــذى يتدلى على ساقيه.. وذلك الجراب البـــاهت تحــت كوعــه، يستقر به مسدس أميرى، ملفوف بإحكام فى كيس نايلـون، صيانة له من الأتربة وغبار الطريق.

أدار الشرطى البديـــن صـــاحب العقـــود الخمســـة والعينان المضعضعتان"، وجهة، مع إستدارة جسمه وأكتافه. بحثا عن ذلك المتهم السياسى الخطـــير. الـــذى ســـيصحبه بالحراسة المضاعفة، إلى جلسة المحكمة، ويتكفل بإعادتـــه إلى السجن، نظر فى وجوه الشرطيين السريين (وحصـــول) خميس -وزميله الشرطى عبد العال، ولم يلحظ ذلك الشـــاب النحيل الواقف فـــى إســـتكانة بيـــن الشـــرطيين الســـريين العملاقين. ولعل الشاب المتهم أدرك بـــأن الشـــرطى الـــذى يمسك بالقيد يبحث عنـــه بيـــن جمهـــرة مـــن المســـاجين "المعروضين" على المحكمة، فى ملابسهم الزرقاء الباهتـــة، أو البيضاء الترابية،فبرز له من خلـــف مرفقـــى الرجليـــن العملاقين، بينما الضابط الشاب الذى يترأس القـــوة ،كـــان يخلص صوته من نعومته صائحاً:

- إنتبه يا عسكرى إنت وهـــو.. وخلصونـــا قبـــل زحمـــة المساجين..

وأشار بالقلم الذى يوقع به فى أوراق ضابط التسهيلات. لم يشر به إلى شخص معين. فقد دفع بسن القلم فـــى إتجـــاه الشرطى (عبد العليم) ليحثه على وضع القيـــد فـــى معصـــم المتهم..

والشرطى عبد العليم كان لا يزال يبحث عن المتهـــم.. ولـــم يستدل من إشارة قلم الضابط إلـــى الشـــخص المقصـــود.. وعندما كان يدور. كان الشاب النحيل يدور خلف ظهـــره.. ولم يجد المتهم بدا من أن يتعلق بمرفق الشرطى عبد العليم ويقدم له رسغيه- ولما كان الشرطى البدين يحملق فى وجه الشاب النحيل، كاد أن يصيح فى وجهه: "أهو أنـــت.. الـــذى جاءت الحراسة المضاعفة لتوصيل جنـــابك إلـــى المحكمـــة وإعادته إلى السجن..؟!" وخطر له أن يزجره.. لكـــن شـــكل

الولد "السياسى" المتهم. جعله يتوقف تماماً عن رد الفعل، الذراعان الممدوان كانا نحيفان.. والوجه هضيماً. بياضه منطفئ، ولكن عيونه صافية بصورة مدهشة. وكأنه لم يبك مطلقا.. ورأى الشرطى البدين.. أن من سيقيده فى رسغه ما هو إلا -عيّل- أصغر من إسماعيل. إبنه الثالث قبل الأخير.
ولا يميزه عن ولده "المنطوى" إلا كومة شعره الأسود النائم فوق رأسه، وتلك الخصلة التى تغطى جبهته، ومع أن الشرطى عبد العليم كان يعالج مفتاح -القيد- ليفتح الحلقة بشئ من الشدة والسرعة المبالغ فيها- وقد عض شفته فبدا الشارب المربع الذى يتخلله الشعر الأبيض بين الأنف الأفطس والشفتين المقلوبتين- أكبر مما هو عليه، وهو بمحاولاته تلك، كان يوحى للضابط الشاب، بأن العمل يتم مشدداً على الصورة المطلوبة. وأغلق عبد العليم حلقه القيد على رسغ المتهم، وفى ظن الشرطى أن المتهم إذا أراد أن يسلت يده من القيد لفعل. وراح يعالج الحلقة التى تخص رسغه هو، وأمكنه بصعوبة أن يغلق حلقته على رسغه متقدماً بالمتهم نحو الضابط الشاب لإظهار أن العمل أنجز على خير ما يرام، وأن التأخير -الآن- يأتى من ناحية سيادته. والضابط الشاب (ملازماً أول) إستمر يراجع الأوراق. والتوقيعات. وفى نفس الوقت يطلب من الشرطيين السريين، إخطار سائق السيارة الصندوق الخاصة التى ستقلهم جميعاً إلى مبنى المحكمة، بأن يتهيأ ويقترب بالسيارة من باب السجن..

للحظة كان على لسان العسكرى عبد العليم -وهو البدين الذى يعشق الهزر والضحك- أن يقول للضابط "يا سعادة البيه. أنا على أتم إستعداد وعلى مسئوليتى أذهب بالولد المتهم إلى آخر الدنيا وأعود به.. فهو فى يدى

كالعصفور، كما أننى أطمئن له، وكــأنى أمســك بيــد إبنــى إسماعيل الذى لا يهش ولا ينش!

"لكن الحراسة المضاعفة ولكل فرد منها مهمته الأميريـــة - والجميع لا يعنيهم أن يكون المتهم ضخما كفيل، أو نحيفـــا كعصفور.. وقد إعتادوا بأن السياسى -فى الغالب- خطورته ليست فى ضخامة بدنه.. ولكنها تتركز فى رأسه ولســـانه، كما تأتى المشكلة من أعوانه وأنصـــاره، عندمـــا يدبــرون تعطيل السيارة المصفحة، ويهجمون على قوتهم الصغـــيرة، ويستخلصون زعيمهم من بين أيديهم.. فيقع الجميـــع فـــى (سين وجيم) ومع أن هذا لم يحدث طـــوال ســـنوات خدمـــة الشاويش عبد العليم، إلا أن الحرص واجبا.

وأعاد الضابط المســـئول -علـــى مســـامع القـــوة -ذكـــر مسئولياتهم. وصار أحد المخبرين يتقدم القوة والشرطى عبد العليم مع المتهم فى قيد واحد يسيران خلفـــه.. ويتبعهمـــا زميله الشرطى المسلح، ومسدسه غير ملفوف فـــى كيـــس بلاستيك، بل على أهبة الإستعداد لإنتزاعه والتعامل به، وما يزال الضابط الشاب يلقى بالتوجيهـــات.. قـــابلت (القـــوة) توجيهات الضابط التى دفع بها فى شئ من الرتابة، وعـــدم الإنتباه. حتى عندما علق على تصرفات القوة، وتراخيهـــا، ببعض الكلمات القاسية. قابلوها بنوع من البرود الوظيفى، وانتظر ' الجميع فتح الباب الصغير الذى يقع ضمـــن بـــاب السجن الكبير.

كانت أصابع يد المتهم السياسى قد عثرت عليها أصابع يد الشرطى البدين. ضغط عليها، وكأنه يبلغه رسالة تقول له "ولا يهمك من كلام الملازم.. لقد أعتدنا بـــأن يســـخط فـــى وجوهنا شباب الضباط. لكن بعد أن يرتقوا إلى ضباط كبـــار يحترمون خبرتنا فى عملنا. والعمل المنوط بنا سيتم علـــى أية صورة.

أو هكذا تخيل "جمال" تلك الضغطات من أصـــابع الشـــرطى البدين- وقد شرع ضابط التشهيلات فى الســـجن. بتنظيـــم حراسات المساجين العاديين..

.. هنا كان قد مال الشرطى البدين علـــى أذن الشـــاب النحيل وسأله:
- ماهى تهمتك؟!
قال الشاب النحيل وكأنه يتوقع سؤاله:
- قضية سياسية.
- أعرف أنها قضية سياسية. هل لك مدة طويلة فى السجن؟
- ثمانية عشر شهراً.
- ياه.. أنا فاكر أنى أخذت منكم واحد منذ ثلاثة شهور هـــل أفرج عنه،أم أنه أخذ "إستمرار حبس"
- لم يفرج عن أحد منذ عشرة شهور..
- لكن لماذا يحبسونكم هذه المدة الطويلة بدون محاكمة؟!

.. حرك الشاب القيد الحديدى- كان يريـــد أن يشـــيح بكلتا يديه.. وأكتفى بأن رفع وأخفض كتفيه. دون أن يعـــثر على إجابة لهذا السؤال. وعاد وأمسك الشـــــرطى بأصـــابع المتهم. ضغط عليها عدة ضغطات، وهو يغمغم دون أن ينظر نحوه:
- إنشاء الله تطلعوا كلكم إفراج. ما دامت المحاكمة النهائية تأخرت كل هذه المدة.. أطمئن، يبقـــى الحكومـــة محتـــارة وبتشوف لنفسها مخرج. حاكم لو كانت التهمة جاهزة فـــى رأس النيابة. ولاتخشى الدفاع، كانت خلصـــت، والقـــاضى طسكم حكم..!

****

أنفتح الباب الصغير فى طرف الباب الكبير. وخـــرج موكب السياسى الخطير. كل فرد فى القوة كان يعرف دوره ويؤديه فى رتابة، وبدون شعور بالأهمية. والخطر لم يكـــن محدقا بهم وهم يشاهدون -المتهم- فى هذه الصورة.. التى قد تقلب الحالة الجبرية الخطيرة. إلى حالة من الهـــزل- إذا ما تركوا الشرطى عبد العليـــم. يقيـــم الموقـــف بصراحتـــه المعهودة..

.. وعلى مبعدة خطوتين أمام باب السجن. كـــان ســـلم السيارة الصندوق. الشرطى السرى أفسح الطريق للشرطى البدين ليصعد إلى صندوق الســـيارة مـــن الخلـــف. حـــاول الشرطى البدين الصعود. ولكنه فشل فى المرة الأولى. وهَمْ مرة أخرى، فخابت محاولته الثانية- إذ كانت الدرجة الأولى للسلم عالية- وفى المرة الثالثة، كان الشرطى السرى قـــد صعد أمامه "سحبه من ذراعه، بينما كان فـــى المحـــاولات الفاشلة والمحاولة الأخيرة يعلق ذراع الشاب النحيلـــة فـــى الهواء ويتراجع به.. وقد أمكن للشاب النحيل أن يثبت أنـــه ساعة الجد يمكن أن يعتمد عليه. فقد وضع كتفه فى مقعـــدة الشرطى العريضة ودفعه للصعود- ومضى خلفه فى خفـــة، وبرطم الضابط بعدة شتائم- قابلها الشرطى البدين بصـــدر رحب. وبعد أن تأكد الضابط بـــأن الجميـــع جلســـوا علـــى المقعدين المستطيلين، وتم إغلاق صنـــدوق الســـيارة مـــن الخارج. أستدار ومضى ليجلس بجـــانب الســـائق. ومعـــه الصول خميس، الذى انكمش دوره كثيرا، فى وجود الضابط الشاب،الذى صفق باب الســـيارة الأمـــامى بشـــدة. إيذانـــا بإنطلاق السيارة قاصدة المحكمة. وعيون كثير من الخلـــق الذين ينتظرون أمام باب السجن- التصريـــح لهـم بزيـــارة زويهم- كانوا يرقبون الشاب الضئيـــل الحجـــم، وحراســـته

الخاصة، فى شئ من العطف والتساؤل "هل هو تلميــذ فــى الثانوى.. أم الجامعة..؟"
وماذا فعل هذا الشاب الوديع؟!

****

كان الشرطى عبد العليم لايزال يلهث عندما مال على الشاب المتهم الجالس بجانبه وقال:
- ما هو عملك؟
- طالب.
- ثانوى.
- كلية الطب.
نفخ الشرطى الهواء بفمه وأدار جسمه نحــوه.. كــم كــان يتمنى أن يستطيع إدخال أحد أولاده الجامعة. أو معهد عــال وقد حاول أن يدخل ابنه الثانى معهد الضباط الفنيين. علــى أساس أنه- الكلية الحربية الشعبية. ولكنه لم يفلــح. قــال للشاب:
- ما شاء الله. كلية الطب حتة واحدة.
- كنت فى البكالوريوس لما قبض علىّ
- يعنى دكتور؟
أصدر الشرطى مصمصة داخل فمه وقال:
-أهلك يا ولداه صارفين عليك صح الباقى.. بص،سنتين من عمرك راحوا.. وزميلك الذى كان فىنفس الصــف معــك صار الآن..
بدا الشرطى البدين وكأنه يخاطب نفسه، ومع ذلك فقد حرك يده الطليقة، وأخرج من جيب صدر سترته. سيجارتين "فرط" وضع واحدة بين شفتيه والأخرى قدمها للشــاب النحيــل.. حاول الشاب أنيرفض قبولها، لكن يد الشــرطى أســتمرت ممدودة بها. وعينه فى عيون من حوله..
- خذ السيجارة عفرها.

أثار موقف الرفض من الشاب الشرطى السرى الذى يجلس قبالتهما فقال:
- خذ منه السيجارة يا أفندى.. أنت ستعيش ألف سنه. عمك عبد العليم لايعطى أحد نفس دخان حتى ولو طق مات
الشرطى السرى الآخر *قال*:
-أنت تعلقها فى برواز. أعمل السيجارة حجاب. يظهر أنـــك من غلاوة أولاده ..
وزغر الشرطى البدين ناحية الشرطيين الســـريين، وعـــاد يحث الشاب بكلزة من مرفقه. فلم يجد الشاب مناصـــا مـــن قبول "الهدية". خاصة وأنه كان يتوق لإشعال سيجارة بالفعل. والشرطى قام باشعال عود الثقاب.. وأصر أن يشعل للشاب سيجارته أولاً حتى كاد عود الثقاب أن ينتهى.وأخذا ينفخان الدخان.. الذى تسلل إلى خياشيم باقى القوة- فتسللت الأيدى إلى الجيوب لتخرج بالسجائر "الفرط" كل منهم أنتهز الفرصة واشعل لنفسه سيجارة..
قال الشرطى عبد العليم:
- إنما أنت من الإسكندرية؟!
- أنا فى الأصل من الغربية. وادرس فى الاسكندرية، وأقيم فى شقة مفروشة مع زملين آخرين.
- هما معك فى القضية..
هز الشاب رأسه.. فقال الشرطى عبد العليم وهـــو لاينظـــر اليه:
- قاعد بعيد عن أهلك. أتلموا عليك الجماعـــة الشـــيوعيين ورطوك فى بلاويهم. وأبوك-لمؤخذاة- وأمك. فاكرينك يـــا ولداه بتذاكر، حاكم الواحد لما يكون وحده فى بلد غريبة، يا تتلم عليه واحده ست تبلفه.. يا........ لكن كيـــف لواحـــد شاطر مثلك، ويدرس الطب، لاينتبه إلى ألاعيب السياسيين.. لكن كيف ستحذر.. وهذا قدر ومكتوب يا ابنى، حاكم دخـــول السجن.. مكتوب على الجبين، منذ يوم مولدك..

نظر الشاب إلىالشرطى وابتسم. كانت ابتسامته واسعه- ولحظ الشرطى البدين ابتسامته . فواصل كلامه:
- بتضحك؟!. البهدلة والسجن وبتضحك. السنين التى ذهبت من عمرك وتضحك. تلقاك بتضحك علىّ. ما هو كل ما كلم واحد سياسى، وانصحه لله. يضحك. بالزمة تقول لى على أى شئ بتضحك؟! وأنا لو منك ألطم، بشقفتين على وشى ..
..وحتى يوقف الشاب اضطراب القيد فى معصمه قال:
- أنت رجل طيب يا عم عبد العليم.
- رجل طيب؟! يعنى عبيط؟!
- أبداً.. أنا أقصد أنك رجل طيب بالفعل.

وهنا تدخل رجل الشرطة السرية الذى كان يتابع الحوار-- مال بجذعه إلى الأمام وقال:
-يا شاويش عبد العليم. ريح نفسك. وحط على قلبك مراوح. السفروت الذى تراه أمامك. دوخنا السبع دوخات. أتغيرت عليه المراقبة ألف مرة. كان فرقع لوز. يبقى قدامك وماشى معاه قدم بقدم. تبص، فص ملح وذاب. المراقبة عليه كانت أربعة وعشرين ساعة. ولانعرف كيف كان يكشف الذين يراقبونه، ويفلت منهم. نبقى فاكرين أنه نايم فى بيته. تبص تلاقيه جاى من آخر الشارع.. وكان عامل "أزعرينه" فى الجامعة. يتكلم "بربند" والتقارير- أنه هو الذى بيحرك الطلبة.. قال إيه- لازم الجيش يحارب.. أنتوا مالكم ومال الحرب، مال الطلبة والحرب؟
وعقب الشرطى عبد العليم:
-يعنى هى الجامعة سكتت لما قبضوا عليه يا عباس؟
وقال الشرطى السرى:
-عيال صغار ولا شايلين للدنيا هم.. لو متكتفين بالمسئوليات، والمطالب التى تكسر الوسط. كانوا أنكتموا..

وقال الشرطى السرى الآخر: والله يا عباس.. ثلاثة من عندنا، اتنقلوا آخر الدنيا بسبب توصيل جوابـــات مــن السياسين لأهاليهم.. نحن ما الذى يتعبنا ويشـحططنا.؟! إلا إذا تحركوا عيال الجامعة.. الدنيا كلها تقف علــى رجـل.. العامل والموظف.يمكن مضايقةفى أكل عيشه. لكن الطالب،الذى يرمى عصاه ويجرى خلفها. ماذا سنفعل لـــه؟ والحكومة إذا عفقت منهم -شلة- الدنيا تقوم ولاتقعد..!

وأكمل الشرطى السرى (عباس):

- والغريب يا أخى. الواحد منهم آكـــل، شـــارب، مكســى، مصروف عليه. ومعظمهم من عائلات، ربنا موسع عليها.. وتلقاهم يناكفوا فى الحكومة وغاويين مشـــاكل. ويصعـب عليك البهدلة والحبس المرمطة التى..

.. واستدار الشرطى السرى نحو الشاب النحيل ودفـــع إليه بسؤال؟

- تقدر تقللى يا أفندى. وأنت على وش تبقى طبيب محترم. لماذا أنت محبوس؟ ولماذا لا تعيش مثل خلـــق اللـــه فـــى حالك؟!

.. ونظر الشرطى عبد العليم بطرف عينه إلى الشـــاب النحيل. وهو ينفث الدخان،ويبتسم فى وجوههـم جميعـاً.. وقال:

- بيبص علينا ولا على باله..

****

كانت السيارة قد قطعت المسافة مـــن بـاب سـجن الحدراء إلى باب المحكمة الذى يطل علـــى ميـاه الميناء الشرقية.. وكان صوت الضابط يعلو ، وكردون من عســـكر

الأمن المركزى يقف فى صفين لتمر بينهما "القوه" التى أتت بالمتهم السياسى- وعلى الرصيف المقابل مع سور الميناء الحجرى، كان هناك أكثر من مائة طالب، أتوا من الكليات المختلفة- يهتفون هتفاتهم ضد "المتخاذلين والأنتهازيين واللصوص.. لم يحددوا أسما معينا، وكلما ارتفعت هتافات الطلبة، إزدادت أعداد الجمهور، ورافق ذلك زيادة فى حركة الضباط، بين صفوف العساكر.. وأندهش المخبران. والشرطى عبد العليم. وباقى قوة الحراسة- أن المئات يهتفون باسم "جمال" وأعتقد البعض أنهم يذكرون الزعيم الذى مات. لكن الشاب النحيل. كلما رفع يده إلى أعلى تعالت هتفاتهم له "الصمود للأبطال" ..

.. والشرطى عبد العليم شاهد فتاه تقترب من الكردون. نحيله مثل المتهم. على وجهها الأبيض المستدير، وتحت قصة الشعر الأسود اللامع. نظارة طبية. ترتدى تاييرا رماديا، وبلوزه زرقاء. لوحت له بكرتونة السجائر الكليوباترا، ابتسم، أشرق وجهه بسعادة غامرة. ولمعت عيونها فى رسالة خاطفة. تابع الشرطى البدين بقايا تلك الرسائل، وتعلق بصره بكرتونة السجائر.. عشرة علب، وكبار ضباط الأمن تعجلو القوه، لإدخال المتهم إلى قاعة المحكمة. ووقفت الفتاة على الرصيف. تفكر كيف توصل لجمال.. كرتونة السجائر، والرسالة المطوية.. كانت قد وقفت فى إنتظاره عدة ساعات.وبعد دخوله إلى قاعة المحكمة ظلت تنتظر..

قبل أن تشاهد الجنود يصطفون ثانية، وعاد جموع الطلبة على الرصيف المقابل يهتفون. والضباط ينشطون نازلين صاعدين السلالم أمام باب المحكمة الكبير، واقتربت السيارة الصندوق من الرصيف المواجه للباب.. وظهر الشرطى عبد العليم محاطا بالحراسة المضاعفة. وقد علق فى ذراعه

الشاب النحيل، الذى كان يبحث عن الفتاة ذات البلوزة الزرقاء. ليومئ لها شاكراً. رآها -الشرطى البدين- تلوح فى اتجاههما- فتجهم. وغمغم:
- ستودينا فى داهية يا جمال..
وإذا أقتربت الفتاة لمسته ودست تحت أبطه خرطوشة السجائر.. وفى نظرة خاطفة فهم أن بها الرسالة..

.. وعندما كان يصعد جمال السيارة- كان الضابط المسئول عن قوة الحراسة -يقول له- أتفضل يا دكتور.. وعندما جلس فى الصندوق على المقعد المستطيل وأغلقت الأبواب- ربت جمال على ركبة الشرطى، واصطكت حلقة القيد فى رسغه- بحلقه القيد فى رسغ الشرطى تعبيرا عن أمتنانه. وتقبل الشرطى هذا الإمتنان بسرور غامر. مال جمال على أذن الشرطى البدين وهو يتحسس الأوراق التى تحت قميصه وهمس:
- أفتح الخرطوشة يا عم عبد العليم وخذ لنفسك علبة سجائر- أنتفض الشرطى البدين وهز رأسه الكبير معاتبا.
- عيب يا دكتور.. والله ما يلزمنى منك شئ. أنت أخذت أستمرار حبس، وهل سناخذ على استمرار الحبس حلوان..
وأفراد الحراسة المضاعفة. باتوا جميعا ينظرون إلى ذلك الفتى النحيل- بعد سماعهم هتافات مئات الطلبة له، فى شئ من الإعجاب..
وتوارى أثر فعل "استمرار الحبس" خلف جيشان من العواطف المتبادلة.. فى سرية تامة..!!

أميبا.. والدقة القديمة

.. لاحظت أن ابنى إسماعيل منذ وصوله للمرحلة الثانوية، لم يعد يجالسنى كما كان يفعل وهو فى المرحلة الإعدادية..

أشعر بأن مسافة ما صارت تفصلنى عنه، وهو الابن البكر على بنتين.

أقنعت نفسى بأن ذلك أمر طبيعى- أن يكون لأبنى حياته الخاصة وأصدقاء يملأون وقته.. ورأيت أن الولد كبر، وصار له مجاله الذى يدور فيه، ونصحت نفسى بأن أكون أبا عصريا. ولا أقلد المرحوم والدى "الدقة القديمة"

عندما كان أبى يتدخل فى حياتى، ويحصى علىّ كل كبيرة وصغيرة- يريد أن يجعلنى نسخة منه، يحقق فيها ما فشل هو فى تحقيقه. يريدنى أن أفوز فى كل التحديات التى حالت ظروفه أن يتغلب هو عليها.

* والدى تصور أنه يمكن أن ينتصر بى على إخفافاته واحباطاته.. فكان يحصى على أنفاسى ويفتش درج مكتبى وجيوبى وكراريسى ويقرأ مذكراتى خلسة...

كان هذا يضايقنى أشد الضيق.. "لا لن أكون مثل والدى الدقة القديمة" وسوف أثبت لإبنى إسماعيل -وأثبت لنفسى- فوائد التربية الحديثة.

* * * * * * * * * * * * * *

"لكى تعرف شخص ما أعرف أصدقاؤه" وكان من أصدقاء إبنى إسماعيل "الولد رامبو" هو نفسه- "نبيل" زميله فى المدرسة.. والده مستشار سابق- والآن صار صاحب مكتب

كبير للمحاماه يتبنى قضايا رجال الأعمال، ويتوسـط بيـن البنوك والفارين بأموالها إلى خارج البلاد- وقد صار فخرى بيه وكيلا لعدة شركات إستثمارية- كما أن عم نبيل- عميد شرطة، وخال نبيل.. لواء فى الجيش..

*وعلمت أن عائلة نبيل لاتستحوذ على الوظـائف الكـبرى فقط- بل هى من العائلات القديمة وارثة الأراضى والعـزب والمصانع.. لذا- فالولد نبيل- مدلل، وراسب لعدة مرات فى المدارس- ويعيد الثانوية العامة- أقصد أنه أكبر سناً وبدناً من أى شخص فى "شلته".

*وعلمت أن أبنى إسماعيل يذهب إليه فـى بيتـه- أقصـد سرايتهم المحاطة بحديقة واسعة من البيوت التى أعتنى بها "جد" العائلة الذى كان صاحب سعادة أو معالى أيام الملكية.

*وجاءنى خبر.. أن إبنى إسماعيل يُشاهد دائما عند "رامبو" أفلاما خليعه فى الفيديو [لم يكن الطبق قـد إنتشـر ليخفف وقع الصدمة علىّ]

*ونقلت لنا هذه المعلومة إحدى قريبات عائلة رامبو -من النوع الفقير- والتى تعمل زميلة لزوجتى فـى وزارة الشئون الإجتماعية، ونصحتنا بأن نفنجل عيوننا، ويكون من الأفضل لنا، إذا ما نبهنا على إبننا الساذج بأن يقطع علاقته بالولد رامبو الفاسد -الوقح- والذى يتعذر عليـه إجتيـاز الثانوية العامة، حتى صار "بغلاً" برغم أن أهله يوفرون لـه المدرسين الخصوصين فى كافة المواد!

* أنزعجت على أثر سماعى لهذه الأخبـار.. لكـن زوجتى شككت فى "الناصحة" ووضعتها فى كومة واحدة مع الحاسدين الحانقين علينا- على أعتبار أن الواشـية تحقـد على الفرع الثرى لشجرة عائلـة "رامبـو" وتريـد إبعـاد [المحروس إبننا] عن صداقـة أولاد النـاس المعتـبرين.. أصحاب الحيثية الإجتماعية المرموقة.

* ومع أننى كنت أدرك شغف وأندفاع زوجتى نحو من تسميهم أصحاب الحيثية- وكذلك تطلعاتها الطبقية المقيتة".. وترحيبها الزائد بمعرفة الناس الأكابر، دون التدقيق فى معرفة مكانها منهم- ومع ذلك وقعت فى حيرة.. هل أصدقها أم أكذبها؟!

* وبما أن التربية الحديثة تمنع التصادم المباشر برغبات الزوجات والأبناء- لتجنب إشعارهم بالقهر والسلطة الأبوية الشرقية التى صارت محل إنتقاد شديد لتسربها إلى الحكام وإعتبار أنفسهم "أرباب" عائلة- مما يعنى عدم زحزتهم عن كراسيهم.. ويكون علينا بصفتنا أناس عصريين أن نأخذ الزوجات والأبناء على كفوف الراحة- على إعتبار أن أعماق الزوجات والأبناء صارت من الهشاشة أن أى أنفعال أو زغدة أو ركلة قد تحطم الولد المسكين نفسياً.. وأن تنزل بجدار الكراهية بين الزوج وزوجته- وأنا هنا أجمل الزوجة مع الإبن البكرى- على إعتبار أن الإبن فى هذه الحالة سيكون دلوعة أمه، خاصة إذا ما كان قد أعقب خلفته بنات -متحوطا- الدراسات فى الخارج لم تغور فى طبيعة النساء فى الشرق- ولا أحد منهم يدرك بأن الأم الموظفة، والتى تمسك بإحدى الأذنين من القفة الحياتية.. صارت هى "الحاكم" للأسرة -الفعلى- وقدام الناس الذين يمرون بنفس الظروف- تتمسكن- وتلعب دور المواطن الصالح المطيع.

* أما وأننى رجل مطلع على الدوريات، بحكم فراغ يكتنف الوظيفة، ومستمع لما يبث فى الإذاعات، بحكم الدخل المحدود الذى يلزمنى فى بيتى -فقد أتبعت نصائح العلم الحديث- بأن أتعامل مع أولادى، بطريقة التحكم عن بُعد- وأبدو ديمقراطيا، وأعايشهم كزميل، لذلك أخذت أهدئ نفسى- وأربت على أعصابى، وأعمل على تبديد مخاوفى،

وأتلمس الحقائق التى سأتشف منها أحـــوال- المحـــروس
إبننا- وعلى وجهى حالة من الرضا والإنبساط.
* إلا أن إسماعيل كان من الذكاء أن يدرك محاولاتى
-وكأنه ضبطنى متلبسا- إنقض علىَ يسألنى:
- ماذا تريد منى يا أبى؟!
كنت أعانى ارتباكا، ولكنى دفعت بكل مخاوفى أمامه، الولـــد
تلقى كل مخاوفى فى ثبات وقال:
"أفلام جنس؟ حضرتك ليس لديك فكرة عن الأستاذ فخـــرى
والد نبيل -أنه سلفى متشدد- جعل أخوات نبيـــل يتنقبـــن.
ويلح على نبيل بأن يرتدى زى الجماعـــة الســلفية.. فهـــو
لايسمح بتشغيل التليفزيون إلا على الـــبرامج التعليميـــة أو
الأحاديث الدينية .."
"ما شاء الله.. ما شاء الله .."
وقدم لى إساعيل عنوان مكتب "المستشار المحامى" الحـــاج
فخرى السنجابى لأتأكد بنفسى..وكنت علىَ أستعداد للإقتناع
ببراءة إبننا المحروس.. فأقتنعت وأرحت نفسى من الخوتة!

* * * * * * * * * * * * * *

بطريقة أو بـــأخرى، دون أن نـــدرى، ســـنجد أنفســنا، أو
بالأحرى سنضبط أنفسنا- نقلد الآبـــاء والجـــدود أحيانـــا..
وجدت نفسى مدفوعا لمراقبة ابنى إســـماعيل عـــن كثـــب،
وبأساليب مبتكرة لم تكن متوفرة لوالدى الذى كانت دهشته
العظمى تتركز على إختراع السينما، ولـــم يعـــش عصرنـــا
المذدحم بالدهشات، أقصد بالإختراعات، وكانت لى مهـــارات
أكتسبتها من مواضيع الأفلام البوليسية، وقعدتـــى الطويلـــة
أمام شاشات التليفزيون.
*فتشت فى أوراق إسماعيل.. وفى درج مكتبه، وفى
ملابسه، وقرأت دروسه ومذكراته.. محاذرا أن لاأخلف أثراً
يجعله يضيق بمراقبتى له.. لم أجد ســـوى بضـــع ســـجائر
فرط.. وبعض الحبوب التى تحيرت فى أمرهـــا- إذ كـــانت

تشبه الأسبرين ولكنها ليست بإسبرين، كان يحفظها ملفوفة بإحكام ويضعها فى جيب جاكتته الصوف -الداخلى- وبالتدقيق فى الحبوب وجدت أنها تشبه حبوبا كنت أتعاطاها من أجل وجع الساقين وخاصة الركب والمفاصل.

*أخذت الحبوب إلى صيدلانى صديق.. حللها وقال لى وهو يبتسم فى خبث:

- ماهذا يا عبد الكريم.. ماعلاقتك ببرشام الاسبراكس المخدر؟!

- اسبراكس، ومخدر؟

- هذا مخدر شديد المفعول.. وممنوع من التداول كأى مخدر مُجرم!

"يا نهار أغبر" قلتها بداخلى وأنا أنتفض- ولكننى ظاهريا بدوت طبيعياً.

* اللعنة على رامبو وعائلة رامبو التى دللته حتى فاض فساده على أولاد الناس الطيبين "تحن" ورحت أصب جام غضبى على رامبو، وأبحث لإبنى إسماعيل عن المبررات.. ثم عن طريقة تبعده عن هذه الصحبة الفاسدة.. وحاذرت أن لا أكون متهوراً.. وأن لايأتى تهورى بأثر عكسى فرويدى يطين أعماق الإبن ويجعله يحلم بقتل والده. وقد تتطور الأحلام إلى أفعال مرضية كوارثية كالتى تفرد الصحف - والبرامج- لها الصفحات والوقت.. ومعظمها تعرض أولاد أبرياء فى عُمر أعواد الملوخية يقتلون آبائهم شر قتله، وبيجاحه يقول القاتل:

"أصله ما بيجنيش علشان كده قلت أموته أحسن"

* إذا أنا واجهت إبنى غاضبا، وعلم بأننى فتشت جيوبه وعثرت على الإسبراكس، سوف تتكون عنده نفس العقدة التى واجهتنى لما كان والدى يفتش أدراجى ويتركها مفتوحة ومبعثرة -ذلك التجسس مشكلة- ولن يغفر لى إسماعيل ذلك.. أنا إبن التربية المتشددة، لم أغفر، فماذا عن

إبن التربية الحديثة التى منعت الضرب فى المدارس والبيوت ؟!
*والمشكلة أن السيدة حرمنا- عند الشدائد- تأخذ جانب إبنها فى حزم، وتجعله خلفها، وتتصدى لى- وبالروح والدم تستكمل المشوار..
* قمت بإخفاء الحبوب، واسماعيل لم يسأل عنها.. كما أننى دخنت مجموعة السجائر الفرط الخاصة به -وأيضا لم يسأل عنها- وواصلت المراقبة عن قرب، ودأبت على تفتيش خصوصياته فى غفلة منه.. وأندهشت إذ أننى لاحظت أن إسماعيل يذاكر دروسه بحماس، ويلعب رياضة سويدى، كما أن نتائج أختباراته الشهرية كانت مرضية. وكنت أخشى دهاء هذا الجيل الذى يحلو له الضحك على ذقن جيلى. من أن يكون قد كشف متابعتى له. فصار يضع لى فى طريقى ما ينبئ عن تفوقه المزعوم.
[لماذا أفكر تحت وقع نظرية المؤامرة ؟]
وقلت لنفسى: الوقاية خير من العلاج يا عبد الكريم أفندى. وبذلك قررت بينى وبين نفسى توسيع دائرة المراقبة ومحورت كل اهتماماتى حول هذا الهدف- فالثانوية العامة فى مصر- منعطف خطير فى مستقبل الأبناء والآباء!!
وهى الشهادة -الملعونة- التى تقرر موادها على كاهل الأسرة،وقد أمكن لها تكوين طبقة من المدرسين الخصوصيين يجب أفساح موقع لها فى الدراسات الإجتماعية والأنثربولوجية.
* * * * * * * * * * * * * * *
*.. أكتشفت أن المدعو رامبو رئيس شلة إسماعيل- شاب طول بعرض، بوجاهة، وملابسه وإن كانت غالية الثمن ومستوردة إلا أنها من نوع ملابس الهيبز.. إذ يفضل أن يرتدى بنطلون الجينز الأصلى لكن بعد أن يمسح به رصيف الشارع ليبدو طبقا للموضة قديما ومستهلكا،ويرتدى تلك

"الدى شرتات".. الإيطالية.. والاكسسوارات التى يتزين بهـا شباب العالم.. المطبوعة صورته على البوستر الكبير..
*وتبينت أن لكل فرد من أفراد شلة رامبـو إسـماً حركيا غريبا- أنهم يرفضون الأسماء التـى تـم إختيارهـا بواسطة الأهالى. وأطلقوا على ابنى إسماعيل إسم [أميبـا] ولا أدرى لماذا.مع أن إسماعيل ما شاء اللـه- لـه جسـم رياضى ممشوق.. ويعتنى بعضـلات صـدره وذراعيـه- لدواعى لبس القمصان نصف كم.. فيما يبدو متأثرا بزعيـم الشلة..
وبدا لى أثناء المراقبة الدقيقـة- أن رامبـو يقـوم بـدور شخصيتين- أحداهما، مهرجة، والأخـرى قاسـية سـاخرة مستهترة. وأن باقى الشلة بالنسبة للشخصية الأولى يلعبون دور الكومبارس. ومع الشخصية الأخرى يلعبون دور أفراد العصابة فى شكلها التقليدى كما مثلها أسـتفان روسـتى- يكون هو الآمر المطاع الذى يعاقب المقصرين فـى تنفيـذ أوامره وإرشاداته، فيضرب أبو الدوبل على وجهـه- بمـا يعنى أنه يبدأ بضرب أضخم من فى عصابته فيرتدع الباقين وينكمشون .
أقتربت أكثر.
*فرأيت رامبو أمام باب المدرسة التى تقـع علـى شـارع عمومى وتجاورها محطة الترام الرئيسية، وفى مواجهتهـا محطة قطار [فيكتوريا] يشاكس المارة الذاهبين والعـائدين. وخاصة من الجنس اللطيف. يقوم ويمشى بجانب السـيدة التى تمر فى الشارع.. وقد وضع فى صدر قميصه كرتيـن، وأحاط رأسه بمنديل، وراح يحرك مؤخرتـه بشـكل لافـت ومغالى فيه- وقد يلصق كتفه بكتف السيدة وهـو يتشـدق بلبانة وهمية فى فمه.. السيدة عندما تفاجـأ بمـن يسـير بجانبها، تنزعج، وتفر هاربة
وتلاحقها ضحكات شلة رامبو

وأحدهم يقوم بدور مصور لبرنامج الكاميرا الخفية..
كانوا يضحكون ضحكات هيستيرية فى صخـــب.. وبينهـــم إبنى إسماعيل.. يضحك مثلهم تلك الضحكات التشنجية..
[نهارك أغبر يا إسماعيل..]

* * * * * * * * * * * * * *

وفى مراقبة أخرى.. رأيت الشله على رصيف محطة القطار [النقراشى] يطبلون ويتصـــايحون، عقـــب خروجهـــم مـــن المدرسة. وكأنهم فى حفل سمر. كانت أصواتهم مزعجــــة، ورامبو يقلد فريد شوقى عندما مثل دور أحد المغنواتية فى فيلم "بداية ونهاية" وأطلق رامبو عددا من النكات البذيئـــة، مستخدما أساليب وألفـــاظ "مدرســـة المشـــاغبين" فتهـــرب السيدات والآنسات أمامهم إلى آخر رصيف محطـــة قطـــار فيكتوريا

ويترحم أحدهم على الأيام التى كانت فيها "المدرســـة" مـــن أرقى مدارس مصر. يتلقى العلوم فيها الملـــوك والأمـــراء وأبناء الأكابر

كنت فى أشد حالات الضيق. بحثت عن إبنى إسماعيل بينهم فلم أعثر عليه. تهيأت لأصنع مصادفة وأصحبه معى- كـــان أحد الركاب قد بلغ به الضيق مبلغه فتدخل بـــالنصح.. قـــام رامبو بتركيز وابل من سخرياته ضد هذا الرجـــل. ضحكـــت الشلة ضحكاتها الهستيرية- تطور الأمر إلى تبادل السباب- تقدمت من ولد أحمق لأمنعه مـــن التعـــدى علـــى الرجـــل الغاضب- عندما أحاطوا بى فى غضب. فـــى ظنهـــم أننـــى أتشدد للرجل، سارعت بأغتصاب إبتســـامة فرشـــتها علـــى وجهى، وأعلنت بأنى والد زميلهم إسماعيل- ضرط رامبـــو بفمه وقال [طظ]

صعد الدم إلى رأسى، لم أدر كيف صفعته. وكيـــف منعـــه زملائه من الإلتحام بى وقد ركلنى بساقه فى أحشـــائى. لـــم أكن أدرك أن لعبة الكونغفو صارت منتشرة بين الطلاب بهذه

الصورة المتقنة.. وتكومت على أحد المقاعد الحجرية فوق رصيف المحطة، أعانى آلاما مبرحة أسفل بطنى. وزمـــلاء رامبو إلتفتوا حولى يتأسفون وخاصة بعد أن تعـرف علـى أحدهم، وأبلغهم أنى والد أميبـا- وأعتـذر أحدهـم بـأنهم يتجاهلون الأسماء المختارة مـن الأهـل ولا يستشـيرونهم فيها!! نسيت ألمى وسألت:

- كيف نأخذ رأى المولود فى أسمه يا إبنى؟!

وجاء رامبو وهو فى أشد حالات الخجل، يتأسف فى مسحة من كبرياء..

- أنا آسف يا عمو.. أنت الذى ضربتنى.. لم أكـن أعـرف أنك أبو أميبا.. أيام سورى !

*لم يكن أمامى إلا قبول أعتـذار رامبـو- ولكنـى تعمدت أن أقص الواقعة بحذافيرها أمام إسـماعيل- تقبـل أحداثها صامتا. جامد الوجه، شعرت بأن الضيق يخنقه وأنا أرقب تقلصات أصابع يديه على مسند المقعد.. لكنه لم يعلق بشئ..

*وواصلت متابعتى لإسماعيل فى الأيام المتبقية من العام الدراسى الحاسم.. وقبل أنقطاع الطلاب عـن الذهـاب إلى المدرسة- المدارس فى الأيـام الحاسـمة تفـرغ مـن التلاميذ والمدرسين ليتفرغ معظمهم للدروس الخصوصيـة ويصيب الإرتباك من ليس لهم مقدرة على دفع أجور الدرس الخصوصى المغالى فيه

• كان إسماعيل قد بدأ "معسكره" فى حجرته- وتوصلت إلـى أنه قطع علاقته تماما بشلة رامبو. وكان يبطل أى محاولـة للإتصال به، تأتى من أحدهم. وينبه على من فى البيت- إذا ما طلبه أحدهم ورامبو بالذات- تليفونيا- يبلغوه بأنه فـى بيت خاله فى أبى قير- وليس لبيت خاله تليفون

"تنفست الصعداء وفركت يدى وقلت لنفسى "يا مسهل"

* * * * * * * * * * * * * *

*عند ظهور نتيجة الثانوية العامة بيض إسماعيل وجوهنـــا. نجح وحصل على خمسة وثمانين فى المائة- عـــال العـــال. برافو يا إسماعيل -لقد أحدثت المفاجآت غـــير المتوقعـــة- وقد أعزيت جزءاً من هذا التفوق لأساليب التربية القديمـــة موضوعا- والحديثة شكلاً..!

*بينما نجح "رامبو" أخيراً بمجمـــوع خمســـين فـــى المائة. "بركة" حتى يترك المدرسة ويذهب إلى حال ســـبيله ولا يشيع فساده على صـــف جديـــد مـــن التلاميـــذ الذيـــن يستعرض عليهم قوته ونفوذه.

*كان من الطبيعى أن نقيم الأفراح، وننسى لإسماعيل هفوات ما فات لنبدأ صفحة جديدة- وما أكثر الصفحـــات الجديـــدة التى يستهلكها الأولاد- ونقول الحمد لله !

* * * * * * * * * * * * * * *

*بدأت مع إسماعيل المرحلة النهائية- بأن نســـتعد لســـحب إستمارة الإلتحاق بالجامعة- ونفكر معا على ضوء "تســـبة المجاميع العامة" فى الكلية المناسبة والتـــى تكـــون محـــل إهتمامه.. ليلحق بها.

*وقد أتاح له مجموعة التقدم إلـــى الجامعـــة فـــى مرحلتها الأولى، لكن إسماعيل كان لـــه رأى آخـــر. إذ أراد الإلتحاق بالكلية الحربية- إسماعيل إبنى الوحيد، وليس لـــه خدمة عسكرية، وأعتقدت أن ذلك أفضل له. لكن إســـماعيل شرع يحدثنى عن "الوطن". ورغبتـــه الشـــديدة أن يخدمـــه بحياته.. وأنه يتمسك بتنفيذ هذه الأمنية بأن يكون واحد من ضباط الجيش المصرى.

*حاولت أن اثنيه- فأنا لم أتصور يومـــا أن يكـــون إسماعيل ضابطا فى الجيش.. تخيلتـــه مهندســـا، ومعلمـــا، وطبيبا، ومديرا فى بنك أو شركة.. ومحاميا.. ولكنـــى لـــم أتخيله ضابطا،ومع أننى رأيت أن هيئته مناسبة.وبينى وبين

ونفسي وددت أن يحقق هدفه ليكون لنا أحد الضبـــاط فـــى العائلة.

*وإسماعيل قد أعتنى بلياقته البدنية، وكذلك أجاد السباحة، وأعد العدة لأختبارات الكلية الحربية- بعد قليل من المقاومة الفاترة تخليت طائعا عن تمسكى، فإن الوظائف صارت مـــن العملة الصعبة التى لا تتوفر إلا للأثرياء والقادرين.

*لذا فقد صارت رغبة إسماعيل هى رغبتى، وكـــان ما يقلقنى حقا كيفية الحصول له على وساطة مناسبة مـــن شخصية كبيرة. تذكى كشف الهيئة فى الكليـــة الحربيـــة..

*وعلى بركـــة اللـــه -قدمنـــا الأوراق لمكتـــب التنســـيق بالجامعات- والكلية الحربية بالقاهرة.

*إجتاز إسماعيل الإختبارات الرياضيـــة والطبيـــة بنجـــاح، ولحدة بصره، رشح لإختبـــارات كليـــة الطـــيران، ووفـــق إسماعيل وأجتاز أختبارات كلية الطـــيران الصعبـــة.. كـــان واحدا من خمسة وثلاثين "فيتراً" نجحوا من أصـــل ســـتمائة تقدموا للإختبار.. حتى أن كبير الأطباء فى الكشف النهائى، كان يناديه "فيتر"

وتقبلنا التهانى مقدما..

*ذلك أثناء الإنتظار المزعج للقاء "الهيئـــة" وكـــان الفوز فى إختبار كلية الطيران- دعامة لايستهان بهـــا فـــى الحصول على ثقة "الهيئة".. ولم أكن أدرى بـــأن مقـــاييس أخرى ستتدخل فى المسألة..

* فقد أطاحت الهيئة بإسماعيل عبد الكريم وقبلت رامبو.. فى الواقع لم تكن مفاجأة لـــى.. ففـــى أثنـــاء الأختبـــارات الرياضية والصحية تصادف وقابلنا رامبو.. كان كارهـــا أن يكون ضابطا تحت الضبط والربط. ولكنه كان محاطا بعناية وأهتمام وتوصيات ظهرت آثارها أثناء الأختبارات -مهمـــا تقاعس- لا تهبط النتيجة عن "مقبول"

الصدمة كانت قاسية لإبنى إسماعيل الذى لايعـى مـا بيـن السطور، وقد تلقاها واجما.. ولم يحر جوابا عندما قال لنـا رامبو ونحن ننصرف من ساحة الكلية الحربية

- هارد لك يا أونكل..

ونظرنحو إسماعيل وقال:

- هارد لك يا أميبا..

وضحك ضحكته الهستيرية..

* * * * * * * * * * * * * * * *

كف إسماعيل عن تبادل الأحاديث معى. كـان يتعمـد عـدم اللقاء بى. يتجنب عمداً.. وإذا تصـادف ودخلـت المـنزل وألقيت ببعض الكلمات المعتادة لايرد ولايمكث طويلا.. يتعلل بأى حجة لمغادرة المكان الذى أتواجد فيه.. ووجبة الطعـام الرئيسية التى تجمعنا.. إذ ما أجبر على الأكل معى.. يـأكل وهو صامت. وفى وقت قليل.. وينصرف موجهاحديثه إلـى أمه وأخواته البنات.

• إستمر هذا الحال بيننا حتى بعد إلتحاقه بكلية طـب الأسنان- التى قبلت مجموعه..

بمرور الوقت. هدأت نفسه وأخذ يلومنى لأن ليـس بالعائلة "لواء" وليس بين معارفى "وزير"

قلت له فى هدوء التربية الحديثة التى تحطم أعصابى:

- يمكنك يا إبنى أن تجتهد فى دراسـتك وتصـير أسـتاذا جامعياً.. ليقع أختيارهم عليك وزيرا للصحـة.. أو الحكـم المحلى!!

لم يتجاوب مع الرد الفكاهى.. نظر إلى طويلا وفـى عينيـه دهشة من يشاهد كائنا غريبا- إذ كيف تكون لى تلك الروح المرحة فى موقف بائس يمر به ولايستطيع التخلص منـه- قال:

- لم أتخيل نفسى يوما طبيب أسنان.. مشكلتى كيف أقنـع نفسى.. بتلك المهنة؟

بدأت الكلام عن عمليات التكيـــف التـــى يجـب إتقانهـا إذ نستخدمها كثيرا.. كان من الواضح أنه لم يزل يعانى قال:
- كيف يمكننى أستذكار دروسى.. يخيل لى أن كتبى مكتوبة بالهيروغليفى ..!

* وأستمر مخفضا علاقته بى إلى أقصى حد ممكـــن أنتزع منه الكلمات بصعوبة- يجعل أخواته أو أمه بيننا،أنـــا أيضا فقدت الرغبة فى إعادته كما كـــان- لازالـــت مرحلـــة الصبا والإعدادية مقياسا.. ثم قلت لنفسى- لعـــل علاقتنـــا كانت من زجاج.. وتهشمت.. أضطررت أن ألجأ لرداء أبـــى "القديم".. أدخل البيت متجهماً.. أطلب من الجميع معـــاملتى كأب [الأب إله قديم من آلهة العرب- مـــع "العـم" وبعـل.. وغيرهم]
لايسمعون منى إلا الأوامر- ألقيها فى سخط وحدة فـــراج.. ويا داهية دقى لو زر مقطوع- أو شئ لم أعثرعليـــه فـــى مكانه- أو طلب ترفيهى-يسمعون منى محاضرة أزعق بهـــا وأخرج فيها كل الضغوط من داخلى،وإذا ما خاطبنى أحد فى البيت أرد فى اقتضاب- وتماديت،فلم أعد أحضر احتياجات المنزل معى. من يريد شيئا يشتريه بنفسه.

- وصارت لى شلة بالمقهى قد تمضى الوقت فى لت وعجـــن وكلام تافه،لكنه وقت نمضيه بعيدا عن إســـماعيل وأمـــه.. ولتذهب التربية الحديثة التى تجعل من الأب "صديـــق" إلـــى الجحيم.
- الأبناء يظنون أن لاشغله لنا فى الدنيـــا إلا الحـــدب عليهـــم والتربيت على ظهورهم..

• ولم أكن أدرى أن شخصية أبى كـــانت مهينـــة لأن أتلبسها دون شعور بأنى أفعل شيئا متناقضاً.. فقد هجـــرت شخصيتى البسيطة المرحة. كواحد من الجماعة فى المـــنزل دون تمييز إلا الإحترام المتبادل.

• وتحولت إلى ذلك الشخص الذى يضع نفسه فوق كواهل من حوله بصورة تجعلنى سعيدا باحباطات من حولى وقهرهم- قد أفيق أحيانا.. وأتعلق بتلك الاحالات التى تسببت فى إرغامى على أن أسلك المدقات القديمة..

• وكانت زوجتى قد هالها التحولات فى شخصيتى وترى أن عينا قد أصابتنا.. بعد أنتقال الولد إلى الجامعة وأختيه إلى المدارس الثانوية.. فى تصورها أن ذلك كافيا لأن يطلق أشعة العيون المستديرة الحاسدة نحونا..

ويوما كانت تطلق البخور، وتثقب العرائس الورقية بالإبرة مع ذكر أسماء معظم الجيران والأقارب التى لاتميل إليهم شخصياً تنغزهم بالإبرة.. ثم تحرقهم.. دون أن تفكر فى نغز ضباط الهيئة الكبار..!

* * * * * * * * * * * * * *

• وذات مساء.. وجدت إسماعيل فى أنتظارى على غير العادة.. أستوقفنى، حاولت الأنصراف متجهما كالعادة- أمسك بى، فتوقفت. كان ينظر إلى وجهى وكأنه يرانى لأول مرة.. ثم احتضننى وأخذ يقبل وجهى.. مبديا أعتذاراً فى كلمات مقتضبة. فإذا بى أذوب.. وأبكى

نافضا من وفق كاهلى شخصية شديدة التجهم.. عائداً من الدروب القديمة، متكيفا مع الهزائم.. ولكنى فضلت أن يكون ذلك تدريجيا ..!

.. وصل إلى علم الإدارة - أن مخزن الأزاريطة - اعتمـــاداً على أنه يقع فى مكان ناء عن بقية مخـــازن الشــركة - لا يلتزم العاملون به، بمواعيد العمـــــل .. وتكـــررت شــكوى العملاء من أنهم يحصلون على فواتـــير شـــراء الأجهــزة الكهربائية والمعدات المنزلية من فـــروع البيـــع، وإذا مـــا توجهوا إلى هذا المخزن المندس فى أحضان حدائـــق بـــاب شرقى، يجدون أنه، إما مغلق، أو مفتوح ولكن المسئول به غير متواجد، وقد ترك بداخله عامل لا يفقه شيئا.

• الأمر الذى جعل المدير العام يصدر لى تكليفا بـــأن أقوم يوميا بصفتى رئيسا للمخازن بالمرور على هذا المخزن فى أوقات مختلفة، تكون فى بداية يوم العمـــل، أو نهايتـــه. "وأى شكوى من أى عميل سأكون مسئولا عنها"

• ومع أننى كنت أجد متعة فى المرور علـــى مخـــزن الأزاريطة. لأننى فى هذه الحالة، كنت أفضل الإنتقـــال مـــن مكتبى بإدارة "العطارين" إلى مخزن "باب شرقى" سيرا على الأقدام، مخترقا شارع السلطان حسين - قلب الاســـكندرية الملكى - مرورا على جزء من حدائق الشلالات .. مستمتعا بمشاهدة طرفاً من تلك الحديقة المزهرة المنســـقة.. وأمـــام تمثال لإمرأة تجلس القرفصاء، وتضع رأسها على كفيهـــا، مقام على نصب غير مرتفع "اعتدت أن أتأمل التمثال يوميا" كنت أنعطف فى الشارع المقابل لوجه التمثال - وقد بدا لى أن المرأة تتأمل شيئا على البعد .. لعله اختفى بعيـــداً عنـــد

"الإستاد" أو عبر نفق السكة الحديد، إلى حى محرم بك. فى نهاية الشارع الذى يواجهها ..

• وأثناء انعطافى فى الشارع المواجه للتمثال .. يكون على يسارى، المركز الثقافى البريطانى، وبعده القنصلية السعودية .. دائما ما يكون أمامها زحام من الذين ينتظرون أعمالا منها .. وعلى يمينى تقع المحكمة الإدارية .. وبعدها المركز الثقافى الألمانى .. فأجد نفسى اتوقف قليلا أمام اللوحة الزجاجية التى يلصق بداخلها عددا من الصور التى تعبر عن نشاط "المركز" أو تعلن عن فاعليات ثقافية تحدث فى ألمانيا .. وأحيانا تعرض صور لبعض اللوحات الفنية الحديثة، تجذبنى لتأملها .. أو تعرض صورا لفنانين وموسيقين مع آلاتهم ..

• وفى كل الأحوال فإن المشى فى قلب المدينة وشارع السلطان حسين، يتقاطع مع شارع صفية زغلول، والمكان مكتظ بالمعارض، ومحتشد بالسلع التى تناسب صرة المدينة. كان ذلك جزءاً من تسليتى اليومية - وخاصة وأن جولتى التفقدية، تنتهى بعودتى إلى بيتى .. كنت أقرن العمل بالفائدة فأشترى ما يلزمنى من هذه المحلات .. أو تكون الجولة مقرونة بمشاهدة آخر ما فى فترينات العرض من بضائع .. ولا يخلو الأمر من إثارة "فاللاتى يغرمن بالتسوق .. بعضهن يكن فى غاية الأناقة والجمال ..!"

• ولأن أى تقصير من العاملين بالمخازن يصيبنى رذاذه بصفتى رئيسا للمخازن - ومسئوليتى "فنية" - تعنى بإنتظام العمل، وحل مشاكل العاملين .. والتبليغ فورا عن إنقطاع من يتغيب عن العمل .. ومن ثم مراقبة حضور وانصراف العاملين .. فى المواعيد المحدده بالشركة شبه الحكومية .. لذا فقد أوكل لى سلطة السماح بالمأموريات والتسهيلات، والموافقة على بعض الإستثناءات، بجانب تقارير الخصم والجزاء !

• ومع ما فى ذلك من "مكانة" فإن تلك المهام الفنية والإدارية يكون من مصلحتى أن تسير سيرها الطبيعى فى المواقع العشرة التى من اختصاصى، وقد تعلمت بأن لا أتمادى فى إستخدام سلطاتى، حتى لا أواجه بردود أفعال محيرة.

ففى الشركات شبه الحكومية .. فوق كل رئيس رئيس .. ولذا، يتوالد الصراع غير المرئى، عندما يريد كل رئيس أن تكون كلمته هى الأعلى .. فيبحث لمن يترأسه عن الهنات قبل الحسنات .. والأخطاء المكررة تجعل المرؤس دائما فى الكفة المائلة.

• لذا فإن صدور تعليمات لى بالمرور اليومى على مخزن الأزاريطة جعل المشوار الذى كنت استمتع به سيرا على الاقدام - مهمة يومية ثقيلة - خاصة وأن القائم بالعمل فى هذا المخزن هو "سعيد النعمانى" المثار دائما، نتيجة لوقوعه ضحية تلاعب أحد الموردين - إذ أخطأ يوماً واستلم صناديق البضائع مغلقة، ولجنة الفحص جعلته يوقع على محضر الفحص باعتبار أنه فتح كامل صناديق البضاعة الواردة .. وبعد فترة. قام بفتح الصناديق فوجد بداخلها بضائع غير مطابقة، وأرخص كثيرا من البضاعة المطلوبة. والتى وافق على استلامها .. الأمر الذى جعلهم يخصمون ربع راتبه الأساسى شهريا ويصادرون لصالح العجز الذى يتجاوز الخمسة آلاف جنيه - كامل الحوافز الشهرية. لذا فقد ارتبكت حياة "سعيد النعمانى" .. وأدى ذلك إلى وجود خلافات بينه وبين زوجته، التى تريد منه الوفاء بالمصروف الشهرى للأسرة كاملا - فتركت له منزله، وأقامت ضده دعوى نفقه لها ولأولادها .. وقد ألزمته المحكمة بمبلغ فوق طاقته، وصار يقدم المستندات بواسطة محامية لتخفيف النفقة الشهرية لزوجته وأولاده.

كنت أتفهم ظروف "سعيد انعمانى" الذى لم يعد منتظمـــا فى العمل. إذ يترك العمل ويذهب إلى المحـــامى. أو يكـــون لديه جلسة بالمحكمة، إما ضد الشركة، أو ضد زوجته التى تخلت عنه فى أسوأ الظروف .. بحجة أنه ثار ولطمها على وجهها.

• وعندما تفاقمت إدعاءات (سعيد النعمـــان) وتغيبـــه كثيرا- تبين لى بأنه لكى يعالج مشاكله الماديـــة المعقـــدة، صار يعمل على سيارة تاكسى طرف ليل، وما يترتب علـــى ذلك من التأخير صباحا. أو قضاء مشاوير خاصة لصـــاحب التاكسى .. ومع علمى بحقيقة ما يفعله، فقد كان علـــىّ أن أتغابى، كمن يعلم بأن أبنه الكبير صار من المدخنيـــن فـــلا يحاول ضبطه وإلا صار يدخن أمامه ..!!

• وكنت أحاسب سعيد النعمانى على كل واقعة منفصلة عن الأخرى، وفى كل مرة يشكو لى أحواله بأسباب جديـــدة .. كنت واثق بأنه يوما لن يجد فـــى ذهنـــه أســـبابا بعـــد استنفادها جميعا .. لكنه كان كالفلاح الفصيـــح فـــى الأدب الفرعونى .. دائما يجد حكاية يحكيها .. وأخنـــق إعجـــابى بحكايته .. ولأنى أعرف الحقيقة، ولا أملك له إلا النصيحـــة الخائبة .. فقد كنت أسد الثقوب، وأنصحه بأن لا يثير شكوى العملاء ضده، بقدر ما يستطيع ويكيف أموره .. مراعيا عدم الموافقة الصريحة على أن يترك العمل فى أى وقت يشـــاء ..!

• ولما كنت أتشوق يوميا إلى حكاية من حكايات سعيد النعمانى الذى أعرف أنه سيؤلفها لىّ، وستكون شبه مقنعةً .. ولعله يبذل جهدا فى تأليفها مقدما .. كنـــت أقـــرن هـــذا التشوق بتفاصيل ما اشاهده حولى أثنـــاء ســـيرى، أركـــز انتباهى - لكسر الملل- على تمثال المـــرأة القرفصـــاء - وعلى ما يعرض فى تابلوه المركز الثقافى الألمانى .. حتـــى حدث وأضيف إلى حشد تأملاتى - عكاز الشـــحاذ عبـــاس

العجوز مقطوع الساق - الذى يأخذ مكانه بجوار كشك لبيع الخردوات على طرف سور الحديقة المواجه لباب كلية الطب .. المطل على الميدان الصغير .

• ما لفت نظرى إلى العكاز الخشب - كمية العمل التى سكبها الشحاذ على العكاز المصاحب له. فيما يبدو كان عكازا قديما غليظا، راح الرجل فى وقت فراغه الطويل - وهو يقوم بالتسول بدون إلحاح - فقط يجلس فى مكانه المعتاد، ويأتيه رزقه. لابد وأنه كان بمبراة يرسم حفرا على خشب العكاز أشكالا وحروفا، ثم يلف عليه أسلاكا نحاسية أو مغطاه بالبلاستيك الملون .. وفى عمود العكاز حلقات ألمونيوم وأساور قديمة لها بريق أو مطفأة. وقمة العكاز التى لابد وهو يتوكأ عليها تحت أبطه استشعر جفافها وصلابتها .. قام بتنجيدها بقطة من القطيفة القرمزية، وأحاطها بالمسامير ذات الرؤوس النحاسية المستديرة اللامعة.

والعكاز بتلقائية التزويق والألوان التى اكتسبها على طول المعاشرة مع الحفر لتلك الأشكال والحروف، يدل على أن الشحاذ الفنان يضيره أن يركن للجلوس دون أن ينشغل بعمل.. فيما يبدو أنه كان يكتب أو يحاول أن يكتب أجزاء من آيات قرآنية .. ولعلى تذكرت المسلات المصرية القديمة عندما تمتلئ جوانبها بالنقوش التى تعبر عن حالات وتواريخ وأحداث .. رأيت أن عكاز الشحاذ العجوز، يجمع كثيرا من أحداث حياته، بل، لو وجد من يحلل كل جزء منه، سيطلع على كثير من اسراره وخباياه.

• انها نفس الحالة التى تحدث لى، عندما أجلس على مكتبى ضائقا ومعظم الأعمال التى اقوم بها لا تتطلب تفكيرا عميقا - أجد نفسى أنشغل برسم وتخطيط اشياء على الورق أمامى .. خطوط تأتى من العقل الباطن فى غفلة منى، فأجدها مسطورة ومشكلة على الورق الذى أبادر واقوم

بتمزيقه .. أما الشحاذ عباس الأعرج، فهو يستخدم سطح عكازه .. حتى صار العكاز بما أضفى عليه من نقوش ورسوم وأسلاك ملونة وحلقات وتنجيد بالمسامير. تحفة فنية تلقائية تستحق التأمل ..

• كان هذا العكاز سببا فى أن أمنح الشحاذ العجوز شيئا من المال كلما وقفت أمامه أتأمل عكازه. حتى صار يثق بى ويهلل لقدومى – بعدها تناولت منه العكاز وأخذت أتفحصه .. وكلما وقفت فى مكان منه راح يحكى شيئيا ..

فعلمت بأنه كان يعمل حمالا بالدائرة الجمركية .. وأن ساقه انحشرت بين صندوقين كبيرين من الحديد يسمونهما الحاويات التى ينزلها الونش من السفن على أرض الميناء .. فهشمت عظام ساقه، وفقدها. ولأنه كان يعمل من الباطن مع مقاول – فقد تنصل المقاول تدريجيا من الإنفاق عليه .. فقام بعدة أعمال لا تتطلب الساقين .. صنع أكياس اللب والحمص من ورق الدشت – ولكن الأكياس النايلون قللت كثيرا من عائده .. انقلب ماسحا للأحذية – فوجد منافسة خطيرة من أفواج الصبية ومطاردات شرطة المدينة .. حاول أن يتعلم صناعة الأحذية وتصليحها..

إلا ان لا أحد من أصحاب هذه الدكاكين منحة الفرصة للعمل.. على اعتبار أن الشخص الكبير سيكون تعلمه الصنعة كالنقش على الماء .. وليس كالصغير .. ونقشه على الحجر.

وعلق الشحاذ قائلاً: بأن الأحذية المصنوعة فى الدكاكين تراجعت أمام الأحذية التى تنتجها المصانع بسعر أرخص .. وانتهى به المطاف جالسا فى ركن الحديقة .. وأصحاب القلوب الرحيمة يبحثون عنه، ويعطونه ما يجودون به .. ولم أسمعه يسأل أحداً من المارة.

وصار من معالم مشوارى التفقـــدى إلـــى مخـــزن الأزاريطة مشاهدة ثلاثة أعمال فنية .. والإستماع إلى قصة جديدة يختلقها لى سعيد النعمان.
أنا ايضا كنت فى حالة ملل دائم وأحساس بالسأم .. فكـــان تمثال المرأة القرفصاء فى الحديقة. وما يعرض فى تـــابلوه المركز الألمانى، من لوحات وصور، وعكـــاز عـــم عبـــاس التحفه .. وسماع جزء من شكوى سعيد النعمـــان. ومعظـــم المسئولين بالشركة يعرفون بأنه ضحية المـــورد الخـــاص للشركة العامة..
وضحية تدليس لجنة الفحص، ولا أحد كان يملـــك شـــجاعة المواجهة ورفع الإعتراض لمساندة المخزنجى حسن النية .. والذى صار من عبيد صاحب التاكســـى .. يطالبـــه بمبلـــغ محدد.. ويلزمه بتصليح ما يعطب من الســـيارة وإلا جـــاء بسائق غيره ..!

• وتدريجيا تسللت تلك المشاهد والقصص إلى عاداتى اليومية، ما كدت أركن لها وتصير جزءا منى .. حتى حدث الإنقلاب المفاجئ ..
اذا إختفى العكاز التحفة، وحل مكانه عكـــاز مـــن الخشـــب الأبيض غير المشذب.
سألت الشحاذ:
– أين عكازك التحفة يا عم عباس ؟
قال فى غير حماس وهو يعمل بمبراة صغيرة فى حفر خشب العكاز الجديد فيتناثر نشار الخشب على ملابسه !
– أعجب به أحد السائحين الأجانب فاشتراه. منحنى عشرين دولارا وأخذه ..
قلت : عشرين دولارا فقط يا عم عباس ؟
توقف عن العمل وأخذ يتفحصنى.. كمن يحـــاول أن يـــدرك مدى خسارته.. ثم قال :

– عشرين دولارا.. أكثر من ثمانين جنيها يا أستاذ.. هـــذا مبلغ معقول جدا..

ورفع العكاز الجديد فوق رأسه وهو جالس وقال:

– هذا العكاز بأربعة جنيهات.. وكان يمكن أن اشترى مثله بثلاثة ..!

وشعرت كمن فقد صفقة كان يحتجزها لنفسه.. ومـــع ذلـــك رحت أشجعه بأن يجعل من عكازه الجديد تحفة جديدة..

نظر إلى فأغرفاه فيما يشبه الضحكة وأخذ يغمغم:

– تحفة.. عكاز تحفة.. ماذا تقصد بتحفة يا استاذ ؟!

• وفى تابلوه المركز الثقافى الألمانى.. ثبتت المناظر لفترة طويلة، فلم أعد أحفل بالاقتراب من التابلوه، وقد حدث تصدع فى قاعدة التمثال فجاء مـــن أزال القـــاعدة وأنـــزل التمثال وأخفاه فى مكان ما..

• كان عكاز الشحاذ الأعرج. وتمثال المرأة القرفصاء. وتابلوه المركز الألمانى قد انتقلوا من الواقع إلى خيـــالى.. وكنت أقوم بمشوارى التفقدى فأتذكرهم فى كل مرة، فأخرج بهم من الخيال إلى الواقع.. فى حالة من عدم الإعتراف بما يحدث حولى.. حتى اختفى سعيد النعمان..

• ذلك جعلنى أربط بين السائح الذى اشترى العكـــاز.. والسيدة الأجنبية التى التقت بسعيد وهو يقـــود التاكســـى طرف ليل.. ولعله كعادته أخذ يشكو لها من زوجته، ومـــن الشركة والمورد.. ومن الرؤساء الذين يراقبونـــه فيضيـــق بهم.. ولعلها تعاطفت مع ســـمار وجهـــه ولمعـــان عينيـــه بالدموع.. وانحصر بصرها من خلف النظارة على شـــفتيه الرمسيسيتين

• سعيد أيضا كان تحفة.. صـــاحب خيـــال إبداعـــى.. يضيف إلى حياتى كل يوم حكاية جديدة..

• تسرب سعيد النعمان كما عكاز عباس العجوز مـــن الداخل إلى الخارج.. ولم يعد فى مشوارى التفقدى ما يبهج

النفس.. لذا تمسكت بمزايا الرؤساء.. أن لا أغادر مكتبـــى، وأكلف مندوب ليس له خيال. يمر على المخـــازن.. وليكـــن التليفون واسطتنا..

• ووجدت نفسى أكثر من الشخبطة والرسوم الباطنية على الأوراق التى أمامى.وأخفيها فـــى مكـــان آمـــن.ولا أتخلص منها..

• وكنت أسأل المندوب دائما:

هل أعادوا تمثال المرأة القرفصاء ..؟!

فينظر إلىّ فى كل مرة.. مدهوشا من سؤالى.. وهـــو يهـــز رأسه بالنفى..



الفهـرس